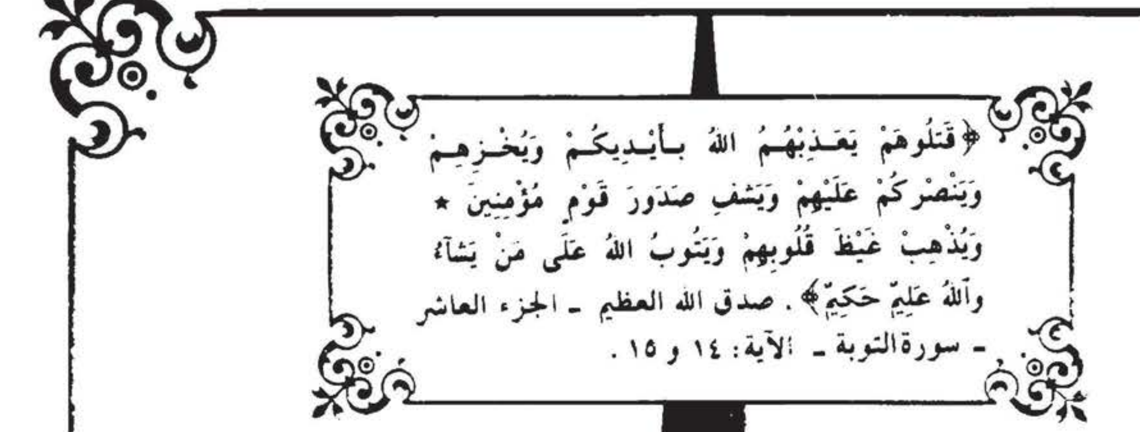


الفصل الثالث

الحروب الصليبية وفن الحرب

- ١ ـ الصمود في حوار الارادات المتصارعة.
- ٢ ـ التوازن الاستراتيجي ـ والتفوق.
- ٣ ـ العنف والتطرف في الحروب الصليبية.
- ٤ ـ الصراع السياسي والصراع المسلح.
- ٥ ـ العامل الاقتصادي ـ والانسان المسلم.
- ٦ ـ قصة المعركة الإسلامية وتطورها.
- ٧ ـ التجربة التاريخية للحروب الصليبية.
- ٨ ـ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب.

١ ـ الصمود في حوار الإرادات المتصارعة.

جاء الفرنج الصليبيون بثقل عددهم وعدتهم، حاملين أحقادهم التي غذتهم بها الكنيسة البابوية زمناً طويلاً، وكانت هجمتهم ثقيلة إلى درجة أذهلت كل ذات حمل عن حملها، وإلى حد أن وضعت كل انسان مسلم أمام ابتلاء لم يعرفه منذ ظهور الإسلام. وهذا ما يفسر ارتداد بعض المسلمين الى النصرانية، فالمسلم لا يرتد إلا إذا نزل به الروع ثقيلاً إلى درجة زادت عن قدرة احتماله. وقد تناقل المسلمون، في مدنهم وقراهم، في سهولهم وجبالهم، أنباء هجمة الفرنج الثقيلة، وما رافق هذه الهجمة من مذابح وحشية، وجرائم عجزت الأقلام عن تصويرها. وبالرغم من ذلك كله، فقد أظهر العرض السابق لمسيرة الأحداث، مدى الصمود الرائع لجمهور المسلمين. فقد اصطدم الفرنج الصليبيون بمقاومة عنيفة حيثما ساروا، وحيثما اتجهوا. وكان صمود المسلمين للهجمة الصليبية رغم ثقلها وشدة وطأتها، هو البداية فقط لخط المقاومة المتصاعد. فقد قرر المسلمون ومنذ البداية، أنه لا مكان على أرض المسلمين وفي بلاد الإسلام إلا للإسلام والمسلمين، وأنه لا بد من لفظ هذا الجسم الغريب، وإعادته من حيث جاء.

ولقد جاءت الأحداث والشواهد، في كل مناسبة لتؤكد تصميم المسلمين على بلوغ هذه الغاية، مهما تطاول الزمن. وكان من أبرز هذه الشواهد:

١ ـ صناعة منبر المسجد الأقصى في حلب قبل إعادة فتح القدس بسنوات كثيرة.

٢ ـ توقيت كل هدنة تم عقدها بين المسلمين والفرنج بموعد محدد وزمن معلوم. وكان هذا التوقيت يسجل بالنسبة للفرنج بالتاريخ الميلادي، وبالنسبة للمسلمين بالتاريخ الهجري. ولهذا كان من الطبيعي، ونظراً لاختلاف عدد أيام السنة بين التقويمين الميلادي والهجري، أن تحدد مدة الهدنة بالسنين والشهور والأيام. بحيث يتم استئناف الحرب مع انتهاء مدة الهدنة.

ومقابل ذلك، فقد كان لدى الفرنج تصميم مماثل على تطوير هجومهم والاحتفاظ بما يمكن لهم الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين، وقد عبر هذا التصميم عن ذاته بشواهد كثيرة أيضاً منها:

١ - الابقاء على تسمية مملكة القدس، وتناقل التاج الملكي وذلك بعد أن طرد المسلمون الفرنج من القدس وأزالوا وجودهم.

٢ - اغتنام كل فرصة ممكنة لتجريد حملات جديدة من أجل استعادة ما يفقده الفرنج في حروبهم مع المسلمين. وهكذا جاءت حملة صليبية بعد ضياع امارة الرها من الفرنج. وجاءت حملة ثانية بعد طرد الفرنج من القدس. وجاءت حملة بعد القضاء على وجود الفرنج في انطاكية.

وهكذا، ومع توافر التصميم لدى الأطراف المتصارعة لبلوغ غايات متضادة، كان من طبيعة الأمور أن يصمد الطرفان المتصارعان - المسلمون والفرنج - في مواقعهما، لا تضعف من جندهما إرادة، ولا تتزعزع من قيادتهما ثقة بحتمية بلوغ الهدف النهائي. فكانت الانتصارات والهزائم عبر مسيرة الصراع الشاقة والطويلة، مجرد نقاط علام أو مؤشرات لمرحلة من مراحل الصراع لا أكثر ولا أقل. أما النتيجة النهائية، فتقررها الإرادة الأكثر تصمياً، والأصدق ايماناً، والأشد عزماً، فكان لا بد بالتالي من استمرار الصراع المسلح، وتصعيده، كلما توافرت الظروف والامكانات للطرفين المتصارعين.

لقد استمرت الحرب على أرض بلاد الشام زهاء مئتي من السنون، لم تخمد جذوة الحرب فيها، ولا انطفأت نار القتال. فكان كل عمل قتالي يصطدم بعمل قتالي مضاد، وكان كل تحد يفرضه أحد الأطراف يصطدم باستجابة الطرف المقابل على هذا التحدي. ولم يعد أي من الأطراف المتصارعة يجهل قدرة الطرف المقابل، أو ينخدع بأعماله، أو يستسلم لنواياه، وأدى ذلك بالضرورة إلى تعقيدات شديدة سواء في ادارة الحرب، أو في ممارسة الأعمال القتالية (على مستوى العمليات) أو في خوض المعركة (على المستوى التعبوي أو التكتيكي). وبات الاختبار الحقيقي للصمود في حوار

الارادات المتصارعة، هو في إضافة عوامل جديدة الى محصلة العوامل المتشابكة في صلب الصراع المسلح: مثل القدرة البشرية، والقدرة الاقتصادية والقدرة السياسية. وإذا كانت المرحلة الأولى التي امتدت زهاء ثلاثة أرباع القرن - حتى معركة حطين - قد تميزت بروعة أعمالها القتالية المجردة من المماحكات السياسية، فقد حملت المراحل التالية مزيجاً معقداً من العوامل المختلفة والتي كان يطفو بعضها على السطح ليحتل المرتبة الأولى في مجموعة عوامل الصراع، ثم لا يلبث أن يتراجع ليفسح المجال أمام عامل آخر. وخلال ذلك كله بقي خط الصراع المسلح ثابتاً ومستقراً، يتمسك به كل طرف عندما تتساقط أهمية العوامل الأخرى، أو تنحسر، بسبب وصولها إلى مآزق حقيقية لا يمكن حلّها إلا بالعودة والاحتكام الى السلاح.

لقد كان من طبيعة الأمور ألا تتساوى أو تتعادل إرادة الصراع على جبهتي الصراع، بل وحتى على الجبهة الواحدة، سواء بسبب الاختلاف في تقويم المواقف، أو بسبب التباين في وجهات النظر من هذه المواقف، أو حتى لأسباب شخصية. مما كان يؤدي الى الصراع داخل الجبهة الواحدة. وإذا كانت انتصارات الفرنج في المرحلة الأولى قد أخفت كثيراً من تناقضات الفرنج، وصراعاتهم، واختلافاتهم، وحتى فضائحهم التي كمنت في صلب الكنيسة - أداة التحريض - فان ذلك قد طفح على السطح بوضوح في المراحل التالية، وهو ما عبرت عنه باسهاب التقارير التي جمعها البابا غريغوري العاشر، والتي تحدثت باسهاب عن **«المنازعات بين الملوك والنبلاء، وفساد رجال الدين، وسوء استخدامهم صكوك الغفران. واقدام رجال الكنيسة على انفاق الأموال في اقتناء الخيول الفارهة، والقرود الأليفة. وعدم اسهام رجال الدين بتأدية الضرائب اللازمة لتمويل الحملات الصليبية»**.

ولهذا لم يكن أمراً غريباً أن يتحدث شاعر الفرنج - همبرت - بمرارة وحزن: **«عن ضياع المزايا الروحية التي وعد بها المحارب الصليبي»**. وأن يعلن كثير من الشعراء الغنائيين - التروبادور - في قصائدهم التي حظيت بانتشار واسع في وسط المحاربين الصليبيين: **«بأنه لم يعد لله أهمية في الحروب الصليبية»**. وأنه **«لا فائدة**

من المضي في الاستسلام لما اعتقده من امثال الملك لويس التاسع ـ من أن الهزائم والاهانات هي في مصلحة النفس».

ولقد سار الأمر على النقيض من ذلك على جبهة المسلمين. فقد حدثت انحرافات كثيرة، غير أن الانتصارات قد عملت هنا بدورها على إذابة وصهر التناقضات، والقضاء على الخلافات. وكانت المنافسة مستمرة بين امراء المسلمين وملوكهم ـ عامة ـ لتقديم البدائل الأفضل والحلول الأمثل. وكان لجمهور المسلمين دوره الأساسي والحاسم في دعم ارادة الصمود. فإذا كانت هذه الارادة تتغذى لدى الفرنج الصليبيين من امثولات رجال الكنيسة، والملوك والأمراء ـ الذين كان يفتقر معظمهم للاخلاص والصدق. فقد كانت هذه الإرادة تتغذى لدى المسلمين من جمهور المسلمين ذاته، الذي كان يوجه أعمال الملوك والامراء والسلاطين. ويرفدها بالدعم القوي، وفقاً لما أبرزته الوقائع والأحداث على امتداد صفحة الحروب الصليبية. ومن هنا جاء الاختلاف الحاسم في موارد إرادة الصراع بين إرادة تأتي ـ اغراء وفرضاً من القيادة ـ وبين ارادة تنبع من الأعماق في وسط القاعدة الكبيرة لدى جماهير المسلمين. ولقد حفظت الأوابد التاريخية للمسلمين شواهد مثيرة ومذهلة عن مواقف جماهير المسلمين في مختلف الحالات. فقد كانوا يمنحون ثقتهم دونما حدود، لمن يعمل مخلصاً في جهده وجهادة، ويحجبون ثقتهم، ويمتنعون عن دعم كل مقصر أو متهاون ـ وكان ذلك يدفع سلاطين المسلمين للمزيد من المنافسة من أجل الحصول على دعم المجاهدين في سبيل الله، وتأييدهم، واكتساب ثقتهم. وإذا ظهر في وسط الفرنج رجال توافرت لهم فضائل الصدق في القول والاخلاص في العمل. من أمثال الملك لويس التاسع ـ. فان قائمة ملوك المسلمين الذين ضارعوه في فضائله، ونافسوه بتفوق كبير في صدقه واخلاصه هي أكبر من أن تدخل في حصر. ولم يكن عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس والمظفر قطوز والسلطان قلاوون والأشرف خليل، سوى رجال احتلوا ذروة هرم ضخم من الامثولات الرائعة التي لم تجد لها ندأ عند الفرنج.

لقد كان الصراع المسلح على أرض أندلس المسلمين مجالاً للاحتكاك الدائم. وقد

عكفت الكنيسة على جمع المعلومات من شبكات جاسوسيتها المنتشرة في كل مكان، عبر الأديرة والكنس. فحاولت عند تنظيم الحملات الصليبية محاكاة المسلمين في طرائقهم وعقائدهم. ولم تكن قصة (صكوك الغفران) و (فرض الصوم في أيام معينة) سوى محاكاة للفرائض التي جاء بها الإسلام. وهنا ظهر الفارق المميز بين ما أنزله الله فوقر في قلوب المؤمنين وعقولهم، وبين ما وضعه الناس، فأثار حماسة بعضهم الى حين، وفتن عقول آخرين إلى حين أيضاً، وعندما انزاحت الغشاوة، وتساقطت الأقنعة الوضعية، ظهر زيف ما وضعه الانسان وأصالة ما أنزله الله. واصطدم الباطل بالحق، فانتصر الحق ودفع الباطل وأسقطه.

كان اعتماد المسلمين في حروبهم الصليبية - كما كان شأنهم دائماً - على عاملين أساسيين الاخوة الإسلامية في الله، والالتزام بفريضة الجهاد في سبيل الله. وهذا مما ساعد المسلمين على الاستعانة بعضهم ببعض، وشد أزر بعضهم ببعض. وكان فرسان المسلمين ينطلقون من خوارزم - من أقصى الشرق ليرفدوا إخوانهم في الشام. فكان في ذلك بعض عدتهم في الصمود عبر حوار الارادات المتصارعة.

رب قائل: وكيف كان المسلمون يعتمدون في حروبهم على شدّ أزرهم بعضهم ببعض، وهم الذين كانوا يقتتلون كلما توافرت لهم فرصة للاقتتال؟ ثم ألم يحدث في مرات كثيرة أن تعاون المسلمون والفرنج ضد المسلمين، على نحو ما حدث عندما سارت جيوش بلاد الشام مع الفرنج لقتال المسلمين المماليك في مصر؟. ثم هل كانت هذه الميزة حكراً على المسلمين ووقفاً لهم، أم شاركهم فيها الفرنج الذين عملوا جميعاً تحت راية الصليب؟ للرد على مثل هذه التساؤلات يمكن العودة إلى مسيرة الأحداث والوقائع ذاتها، فعندما سارت الجيوش الإسلامية جنباً إلى جنب مع الفرنج، ووقفت في تنظيم القتال، رفضت جماهير المسلمين حمل السلاح بعضها ضد بعض، فهرب جيش حمص وهرب جيش الكرك، وهرب جيش دمشق، وتركوا جيش الفرنج وحده في مواجهة مسلمي مصر. والأمثلة بعد ذلك كثيرة. أما فيما يتعلق التزام المسلمين بفريضة الجهاد في سبيل الله، فالأمثلة بدورها واضحة في كل موقف وفي كل معركة. إذ لولا

هذا الالتزام، لما تمكن المسلمون من متابعة الصراع رغم الاحباطات المستمرة ـ لاسيما في المرحلة الأولى ـ ورغم ظواهر الوحشية التي لازمت هجمات الفرنج والمغول على السواء، فأعمال الاستباحة والابادة الاجماعية والنهب والتدمير كافية لالقاء الروع في قلوب جميع الناس. إلا من عصم الايمان قلبه من الخوف فكانت إحدى الحسنيين هي هدف وجوده وغايته، وكان هؤلاء من الكثرة مما جعل من المحال على الفرنج وأحزابهم القضاء على الإسلام وأهله.

هذا لا يعني بداهة أن الكنيسة ـ وسلطة البابا ـ لم تفلح في توحيد جهد الفرنج تحت راية الصليب. وخلق نوع من الاخوة بين رفاق السلاح. غير أن هذه الاخوة بقيت محكومة بالمصلحة الدنيوية. فكان مثلها كمثل الاخوة التي نشأت بين المسلمين والفرنج في ظروف معينة، فلما ظهر زيف هذه المصلحة. أو انهارت عوامل تكوينها، زالت الاخوة. وهذا ما تصوره بوضوح عمليات تدمير القسطنطينية على أيدي الفرنج الصليبيين، وكذلك قيام الفرنج بغزو قبرص ونهبها. بالاضافة الى تلك الصراعات المستمرة بين الجنويين والبنادقة وبينهم وبين فرنج الغرب. ثم هل كان الحصول على (صكوك الغفران) وبيعها أكثر من غطاء مادي لتغطية الافتقار للايمان الحقيقي. إذ لو كان الحافز هو الايمان الحقيقي لما كانت هناك حاجة للصكوك المادية لتثبيت العلاقة بين الانسان وربه على أيدي تجار الصكوك.

هذا لا يعني بداهة عدم توافر إرادة الصراع لدى الفرنج، إذ لولا هذه الارادة لما سارت جموع الفرنج من كل فجّ عميق، من أرجاء الغرب للوصول الى فلسطين. ولولا هذه الارادة لما ظهرت إرادة الحوار لدى الأطراف المتصارعة، ولانتهى الصراع بمجرد انتصار أحد الأطراف. ولكن الصمود والاستمرار عبر أجيال متتالية حتى بلوغ الهدف هو المقياس لقوة الارادة. وقد برهن المسلمون أنهم هم الأقوى.

٢ ـ التوازن الاستراتيجي ـ والتفوق.

انتصر الفرنج الصليبيون انتصاراً حاسماً بقـواتهم المتعـاونـة، على قـوات المسلمين المتفرقة. فأقاموا إماراتهم ومملكتهم على أرض بلاد الشام، وذلك خلال السنوات الأولى من هجومهم الشامل. وانصرف امراء المدن المسلمين في بلاد الشام لتنظيم الدفاع ضد الوافدة الجديدة، وأخذت الحرب بين الفرنج والمسلمين شكل حرب استنزاف حقيقية بين هذه الوافدة التي تحاول التوسع والانتشار، وبين قوات المسلمين التي حاولت حصار قوات الوافدة في حدود معينة، غير معترف بها، ولكنها تشكلت بما فرضته القوة من واقع. ولهذا أخذ الصراع خلال هذه المرحلة يتركز حول هذه الحدود التي مثلتها القلاع والتحصينات.

وأفاد المسلمون من تفوقهم الكبير في أساليب الحرب الهجومية ـ أو حرب الحركة ـ لحرمان الفرنج من حرية العمل العسكري، وذلك من خلال التوسع بأعمال الكمائن والاغارات.

فأمكن خلال سنوات قليلة استنزاف قوة الفرنج الصليبيين، وطردهم من أول إمارة أقاموها على أرض بلاد الشام ـ وهي إمارة الرهـا ـ. ولقد كان انتصار المسلمين ـ رغم أنه لم يحظ كثيراً باهتمام الباحثين والمؤرخين ـ في القديم والحديث ـ انتصاراً ضخماً لا يقل في حجمه واتساعه عن انتصارهم في حطين أو في عين جالوت. فقد عرف المسلمون من خلاله أن باستطاعتهم الانتصار على هذه القوة التي ظهرت للوهلة الأولى بأنها قوة لا تقهر. كما عرف الفرنج أن انتصار المسلمين في الرهـا هو بداية تحول حاسم سيتطور بسرعة، فبادروا لارسال حملتهم الصليبية الثانية.

وكان انتصار المسلمين في الرهاء مـؤشراً على حـدوث نـوع مـن التـوازن

الاستراتيجي في القوى. فكانت الحملة الثانية هي من أجل تحطيم هذا التوازن، وإعادة الفرنج إلى الموقع المتفوق الذي احتلوه في هجومهم الأول.

وأدرك أمراء الموصل - الزنكيون - أنه لا بد من التحرك - سراعاً - للمحافظة على هذا التوازن، وذلك بإضافة قوى جديدة في إطار جهد موحد. مع الاستمرار في استنزاف قوة الفرنج. وهكذا أخذ العمل منذ هذه المرحلة شكلاً مميزاً وأكثر تعقيداً مما كان عليه في المرحلة السابقة.

إذ انتقل العمل ليشمل جبهتي الصراع، فكانت كل إضافة لقوى المسلمين تساعد على تحقيق المزيد من الاستنزاف لقوى الفرنج. كما كان كل استنزاف لهذه القوى يضيف رفداً جديداً يساعد على الاحتفاظ بالتوازن الاستراتيجي.

وبذلك تم توحيد قوى المسلمين في بلاد الشام تحت راية الجهاد في سبيل الله والتي حمل لواءها الزنكيون. وعندما حاول الفرنج الفرار من الضغط الذي يتعرضون له في بلاد الشام، إلى منطقة الضغط الأضعف - في مصر - بادر نور الدين زنكي لارسال الحملات المتتالية الى مصر (وهي ثلاث حملات على نحو ما سبق عرضه). وبذلك أمكن فرض الحصار على امارات الفرنج، وتم تقييد حرية عملهم العسكري. وقد تأكدت حقيقة وصول المسلمين إلى مرحلة التوازن الاستراتيجي من خلال إحباط الجهد الذي بذلته الحملة الصليبية الثانية لإعادة الفرنج لموقع التفوق. واستمر المسلمون في استنزاف قدرة الفرنج، وتدمير قواتهم تدميراً منهجياً منظماً، حيث أمكن حصرهم في الشمال، وانتزاع عدد كبير من الحصون والقلاع التي سيطروا عليها في هجومهم الشامل الأول.

جاء الأيوبيون - بقيادة صلاح الدين يوسف بن أيوب - وقد أصبح سبيل العمل واضحاً. وأصبح النهج محدداً. وقد حاول الفرنج بأكثر مما يستطيعون، تحقيق أهداف ثلاثة: **أولها** توسيع مجال حرية العمل العسكري - فكانت الهجمات على الجليل، وفي الشمال، وغزو البلاد المقدسة - الحجاز - تعبيراً عن الضيق الذي كان يفرضه المسلمون على الفرنج والذي حرم الفرنج من استخدام قدرتهم القتالية. **وثانيها - الحصول على موارد اقتصادية زراعية وتموينية وبشرية تساعد على دعم القدرة القتالية وتأمين**

متطلباتها. وقد تمثل ذلك بهجوم الفرنج على القوافل التجارية للمسلمين، وعلى قراهم ومزارعهم، ونهبها. **وثالثها** - حرمان قوات المسلمين من ميزتها الأساسية وهي تفوقها في حرب الحركة - الهجومية، وذلك بالظهور في مناطق الضغط الأضعف، مثل هجومهم على دمشق خلال فترة وجود صلاح الدين وجيشه في بلاد الشام. ومثل محاولة قطع حركة الاتصال المستمر بين بلاد الشام ومصر. وكان رد صلاح الدين واضحاً وتمثل بما يلي:

أولاً - متابعة استنزاف قدرة الفرنج الاقتصادية والبشرية، بتنظيم هجمات متتالية على - ممتلكات الفرنج - سواء في الجليل، أو في الشمال (حول انطاكية) للقيام بتدمير القرى واحراق الحقول والمزارع، ونهب كل ما يمكن أن يفيد الفرنج ويدعم قدرتهم القتالية.

ثانياً - متابعة حشد قوى المسلمين وزجها في إطار قوة متكاملة. وتنظيم أعمالها بصورة متناسقة.

ثالثاً - عدم الانسياق - أو الرد - لما كان الفرنج يخططون له ويعملون. فعندما بلغه ما قام به الفرنج - وهو في شمال بلاد الشام - من أعمال تدميرية ونهب في الجنوب، لم يتحول عن هدفه، وأطلق مقولته الشهيرة: «يملكون قرى ويخربونها، ونملك مدناً نتقوى بها عليهم».

وقد عبرت هذه المقولة عن عاملي التوازن الاستراتيجي: تدمير القدرة القتالية للعدو - البشرية والاقتصادية والمعنوية - وإضافة قوى جديدة لجبهة المسلمين.

وقد يكون من المناسب هنا الإشارة إلى أن العمل على الجبهة الداخلية للعدو قد شمل الإفادة من التناقضات بين مراكز قوى العدو وضرب بعضها ببعض لاضعافها جميعاً، مما يزيد بالتالي من قدرة المسلمين. وقد عمل نور الدين محمود بن عماد الدين على الإفادة من أمير الأرمن ودعمه ببعض قوات المسلمين لتدمير القوى المضادة في أرمينية. وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبي عندما أفاد من كونت طرابلس ريموند للعمل ضد الفرنج مما أدى إلى انتصار المسلمين في صفورية - على الداوية

والاسبتارية - قبل معركة حطين مباشرة. وقد أدرك الزنكيون ومن بعدهم الأيوبيون أن ما يمكن تسميته-بالتوازن الاستراتيجي في المصطلحات الحديثة ما هو إلا مرحلة مرنة ومتحولة للوصول إلى التفوق وأن التفوق والمحافظة عليه هو الهدف، ولهذا فعندما أدرك صلاح الدين أنه أحرز هذا التفوق، صمم على زج القوى في حطين. وقاوم رغبات أمرائه الذين أرادوا الاستمرار في حرب الاستنزاف، وتجنب زج كل قوى المسلمين ضد كل قوى الفرنج. وقد أكد ذلك الحوار والنقاش الذي دار في المؤتمر السابق ليوم حطين، أن أمراء المسلمين قد عرفوا أهمية حرب الاستنزاف للابقاء على التوازن الاستراتيجي، فقد كانت حرب الاستنزاف هذه، واشتباكاتها الظافرة، تزيد في كل يوم من قدرة المسلمين، وتضعف يوماً بعد يوم من قدرة الفرنج. ولهذا فقد اعتقد الامراء الذين أيدوا فكرة الاستمرار في حرب الاستنزاف أنه بالمستطاع تدمير قوات الفرنج دونما حاجة للبحث عن الحسم في الصراع المسلح. أما صلاح الدين فقد عرف أن التوازن ما هو إلا مرحلة للوصول إلى التفوق. وأن تأكيد الوصول الى هذا التفوق لا يتحقق إلا من خلال المعركة الحاسمة. ومقابل ذلك، فقد عرف الفرنج أنه لا قبل لهم بمتابعة حرب الاستنزاف، إذ كانوا يخسرون كل يوم من القوى ما لا يستطيعون تعويضه، وقد أكدت مناقشات الفرنج التي سبقت حطين أن قادتهم كانوا يبحثون عن المعركة الحاسمة، لا حباً في المعركة أو رغبة فيها، وإنما تعلقاً بأمل أن يؤدي الحسم إلى إيقاف الاستنزاف. وكان ذلك يعني ببساطة أن الفرنج كانوا يجهلون حقيقة الموقف على جبهتي الصراع، فيما كان أمراء المسلمين وقادتهم يعرفون عن قناعة، ويدركون عن وعي، متحولات الصراع في كل مرحلة من المراحل.

خلف المسلمون وراءهم، على ذرى حطين، مسألة التوازن الاستراتيجي، فقد تم لهم تدمير الكتلة الرئيسة لجيوش الفرنج، ولم يبق في مدنهم وحصونهم وقلاعهم إلا الحاميات الدفاعية المحرومة من القدرة الحركية. وبات باستطاعة الجيوش الإسلامية تحقيق التفوق في كل موقع، فانطلقت جيوشهم تجوب بلاد الشام من أقصاها إلى أقصاها وهي تجتاح كل ما تستطيع اجتياحه. وذهل الغرب لهذا التحول، رغم أنه كان متوقعاً، إذ كانت نذره وبواكيره قد أنبأت منذ عهد بعيد بحدوثه. فقذفت انكلترا

وفرنسا وألمانيا وسائر دول الغرب بتجمع صليبي جديد في محاولة لإعادة التوازن المفقود. واستطاعت هذه الحملة الصليبية الضخمة تجميد الأوضاع. غير أنها لم تتمكن من سلب المسلمين مواقع تفوقهم، ولم تتمكن من رفع قدرة الفرنج إلى موقع التوازن الاستراتيجي. وعاد المسلمون إلى استثمار تفوقهم في أساليب العمليات وفي تفوقهم التعبوي - التكتيكي - لاستنزاف قوة الفرنج في معارك متتالية واشتباكات مستمرة.

وتابع الفرنج ارسال موجات الدعم المتتالية، والحملات المتتابعة، غير أن الاستنزاف المستمر - مادياً ومعنوياً، اقتصادياً وبشرياً - لم يترك للفرنج فرصة بناء قوة جديدة تساعد على استعادة التوازن. وهكذا أخذت المدن والقلاع في العودة إلى أصحابها المسلمين. وأدرك ملوك الغرب، وامرائه، ومقاتليه، أن المشروع الصليبي هو مشروع خاسر، ولا يحقق الفائدة المرجوة، وأنه من المحال إمداده بالقدرة المستمرة، ولهذا فعندما جاءت الضربات النهائية، لم ينهض أحد من ملوك الغرب لانقاذ ما كان قد بقي للفرنج من وجود على أرض بلاد الشام. وأمحت من على الأرض وزالت حتى بقايا قوات الفرنج.

لقد حاول الفرنج، عندما فقدوا توازنهم الاستراتيجي، استعادة هذا التوازن باستخدام سياسة استراتيجية مزدوجة، **أولها** تجزئة جبهة العالم الإسلامي وتفتيتها من الداخل، سواء بالهجوم عليها مباشرة - وذلك بتوجيه الحملات إلى مصر لعزلها عن بلاد الشام - وهي الحملات التي تم تدميرها مرة في دمياط والثانية في المنصورة. أو بواسطة استخدام بعض مراكز القوى الداخلية (مثل تحالف لويس التاسع مع الباطنية - الاسماعيلية). أو بواسطة استثمار التناقضات بين أمراء المسلمين وحكامهم. غير أن هذه السياسة فشلت أمام صمود المسلمين. **أما ثانيها** - فهو قذف قوات من خارج ساحة المعركة. وإذا كان وقود الصليبية قد عجز عن امداد آلة الحرب بمتطلباتها. فقد تكون قوة المغول التتار قادرة على تأمين الوقود اللازم لاضعاف الإسلام والمسلمين. وهنا كان دور المسلمين في مواجهة التتار، مماثلاً لدورهم في مواجهة الفرنج. فقد انطلق المغول التتار بجحافلهم الضخمة من جوف آسيا. وأمكن لهم اجتياح سيبيريا واوروبا الشرقية بسرعة مذهلة وبمقاومة لا تكاد تذكر. ولكن هذه

الجحافل اصطدمت منذ انطلاقتها بالقوات الإسلامية في أقصى الشرق. وحملت الدولة الخوارزمية عبء المواجهة الأولى، حيث دارت معارك ضارية، استنزفت كثيراً من قدرة المغول. وعلى الرغم من استخدام المغول التتار الأساليب الوحشية كالإبادة والتدمير لكل ما على سطح الأرض من مظاهر الحياة، بهدف ادخال الرعب في قلوب المسلمين، وحملهم على الاستسلام دونما مقاومة. إلا أن هذه المقاومة لم تتوقف، وقد كان من الغريب حقاً - بالنسبة للفرنج والمغول على السواء - أن تصمد المدن الإسلامية في وجه المغول التتار، وأن تقاوم جحافل البرابرة، قدر استطاعتها بل وبأكثر من استطاعتها، رغم معرفتها بما ينتظرها على أيدي الغزاة التتار.

وهكذا استمر المسلمون في استنزاف قدرة التتار واضعافها حتى إذا ما وصل سيلهم إلى فلسطين، كان قد بلغ غايته. وهذا لا يعني أن المغول في هذه المرحلة قد فقدوا كل قوتهم. ولكنهم وصلوا إلى مرحلة التوازن الاستراتيجي مع جيش مصر. وجاء تفوق المسلمين في أساليب العمليات لينقل المسلمين من موقع التوازن إلى موقع التفوق الاستراتيجي. فقد أعد المظفر قطوز لجيش المغول كميناً في التلال المحيطة بعين جالوت، وعمل على استدراج خصمه المغولي كتبغا إلى موضع الكمين، وعمل على تدمير جيشه وإبادته. فكانت هذه المعركة من المعارك الحاسمة التي لم يشهد تاريخ فن الحرب إلا نماذج قليلة لها (مثل معركة كاني بقيادة هاني بعل) حيث تم تدمير جيش بكامله في كمين محكم. ولقد حاول هولاكو بعد ذلك استعادة التوازن المفقود. كما حاول خليفته (الايلخان أباقا - أو أباكه) استعادة هذا التوازن عندما زجّ جيشاً من مائة ألف مقاتل. إلا أن هذا الجيش لم يتمكن من تجاوز حدود سوريا الوسطى (حمص). حيث تعرض الهجوم الجديد لما كان قد تعرض له جيش كتبغا في عين جالوت.

لقد برهنت هذه التجارب بمجموعها على أن قضية التوازن الاستراتيجي، في الحروب الصليبية القديمة لم تكن قضية جامدة، بل إنها تميزت بكل الخصائص الملازمة لمضمون التوازن الاستراتيجي، وأهمها: المرونة، والتحول، والمرحلية. وتعني المرونة هنا التكيف مع الظروف الزمنية والمكانية لمسرح العمليات. ويعني التحول أنه باستطاعة أحد

الأطراف اختيار وسائل العمليات المناسبة لاضعاف قوة خصمه ودعم قدرته الذاتية على حساب خصمه.

أما المرحلية فتعني أن التوازن الاستراتيجي ليس غاية في ذاته، وليس مرحلة يمكن التوقف عندها، وإنما هو عتبة للوصول الى موقع التفوق.

ولقد برهن العرض السابق أن المسلمين لم يحاولوا أبداً الموازنة بين حجم قوى العدو، وحجم قواتهم الذاتية. إذ أن رصيدهم المعنوي الهائل ـ الايمان ـ وثقتهم المطلقة بتفوقهم في أساليب العمليات كان هو المعاوض لهم عن تفوق العدو ـ العددي ـ. ويفسر ذلك صمود المسلمين أمام ثقل الهجمات التي تعرضوا لها، وتجاوزهم للمحن والكوارث التي نزلت بساحتهم. وهذا لا يعني أنهم كانوا يهملون قضية التفوق المادي بدلالة اهتمامهم بتأمين أكبر حشد ممكن من القوى البشرية المقاتلة للوصول الى التوازن مع العدو، ثم تجاوز هذا التوازن الى مرحلة التفوق. وهنا وفي مجال البحث عن التفوق بالقوى يمكن الإشارة إلى ما اتبعه الظاهر بيبرس في مواجهة التفوق الكبير للمغول، فقد أفاد بيبرس من المسلمين التتار (القبيلة الذهبية بقيادة الخان بركة) ووجههم ضد المغول الوثنيين. ولم يكن ذلك إلا تطويراً للتحالفات التي استخدمها المسلمون في مرات كثيرة ضد الفرنج الصليبيين، من أجل تأمين التوازن الاستراتيجي لا على مستوى جبهة الصراع ـ في بلاد الشام ـ وانما على المستوى الاستراتيجي الشامل.

يظهر ذلك أن قضية (التوازن الاستراتيجي) في الحروب الصليبية القديمة قد أخذت شكلاً معقداً، شمل التحالفات العسكرية، كما شمل كافة عوامل الصراع، الاقتصادية والمعنوية والبشرية والاستعداد القتالي، والفضائل الحربية للمقاتلين. وكان تفوق المسلمين في تطبيق مبادىء الحرب: المبادأة والمباغتة وأمن القوات، والتأمين الإداري للقوات، ثم مهاراتهم الكبيرة في أساليب حرب الحركة، واستخدام القدرة الحركية في الهجوم، هو العامل الأساسي والحاسم الذي استنزف القدرة القتالية للفرنج، ثم للمغول، ونقل المسلمين من مواقع الدفاع الاستراتيجي ثم الى موقع التوازن، ثم إلى مواقع الهجوم الاستراتيجي الشامل. ولقد اعتمد المسلمون في حربهم الطويلة الأمد على

محصلة العوامل الخارجية والداخلية. غير أن اعتمادهم الأساسي بقي ثابتاً وهو الاعتماد على الصراع المسلح باعتباره الوسيلة الوحيدة لحل التناقضات التي بقيت ملازمة للحروب الصليبية ومرافقة لها، منذ بدايتها وحتى نهايتها. فقد جاء الفرنج من كل أرجاء الغرب لاقامة كياناتهم بقوة السلاح. واستمروا في الاحتكام للسلاح من أجل تحقيق أهدافهم. ولم يكن باستطاعة المسلمين اختيار سبيل آخر سوى الاستجابة للتحدي الذي فرضته قوة السلاح.

٢ ـ العنف والتطرف في الحروب الصليبية.

عرف المسلمون في الحروب الصليبية نوعاً من العنف ومن التطرف لم يعهدوه ولم يعرفوه من قبل، فكثيراً ما جابهتهم مقاومات عاتية في فتوحاتهم، ورغم ذلك فقد عملوا وهم في نشوة انتصارهم على منح الأمان لكل من لا يحمل السلاح. ذلك أن المسلمين يتعاملون مع الحرب على أساس أنها مرحلة للوصول الى السلم والأمن وتعريف الناس بدين الإسلام وفضائل المسلمين، فكان العنف يصل ذروته وأقصى شدته في ميدان القتال، ثم يتحول الى رحمة ورأفة وأخوة لمن يقبل على دين الله، ودون قهر لمن يعرض عن ذلك ويقبل البقاء على دينه والالتزام بشروط المسلمين: الإسلام أو الجزية أو الحرب.

فكانت الجزية لقاء الذمة التي يمنحها المسلمون لأهل الذمة. أما أعمال الإبادة الاجماعية، وأما الاستباحة، وأما النهب وانتهاك الحرمات، فلم تعرفها المدن التي فتحها المسلمون الذين كانوا يتطلعون أبداً، ومن خلال الحرب، إلى إعادة بناء مجتمع ما بعد الحرب على أسس وقواعد جديدة حدد الإسلام أصولها ومرتكزاتها. ولهذا فقد صدم المسلمون صدمة عنيفة لما ارتكبه الفرنج الصليبيون من المذابح وما مارسوه من الجرائم على امتداد مسيرتهم في بلاد الشام، بداية من أنطاكية ونهاية بمذبحة القدس. وكانت دماء المسلمين التي أريقت ظلماً أو غدراً هي السد الأول الذي انتصب قائماً ليمنع كل تفاهم بين المسلمين وبين أعداء الدين. وقد حار المسلمون في تفسير هذه الظاهرة، غير أن أعداء المسلمين ذاتهم أوضحوا مقاصدهم الكامنة وراء هذه المذابح: لقد كانوا يريدون الأرض خالية من السكان لإقامة اماراتهم وممالكهم، ويريدون الأرض لتوزيعها على كبار رجال الحملات الصليبية. وكانوا يريدون من خلال أعمال الإرهاب أيضاً نشر هالة من الرعب تساعدهم على تغطية ضعف قدرتهم البشرية المقاتلة. ولكن

روح الحقد التي غرسها رجال الكنيسة واستثمروها لتنفيذ أهدافهم لم تلبث أن خمدت جذوتها في نفوس الرجال الذين استوطنوا في بلاد الشام، وعرفوا المسلمين وفضائلهم. فكان لا بد من إمداد الصليبية بدم جديد يحمل روح الحقد ذاتها، فكانت الموجات المتتالية للفرنج الصليبيين هي الدم الحاقد الذي كان ينكأ باستمرار جراح المسلمين الدامية، ويجعلهم يعيشون دائماً ذكريات المذابح التي ارتكبها الفرنج الصليبيون عند قدومهم إلى بلاد الشام للمرة الأولى ويجعلهم يربطون ربطاً محكماً بين جرائم الفرنج القديمة وجرائمهم المتتالية. وبالاضافة إلى ذلك فقد أفرزت الروح الصليبية التي زرعت الكنيسة بذورها، مجموعات من الطوائف الدينية التي أخذت على عاتقها الابقاء على جذوة العداء متقدة، وروح الصليبية مسعرة.

لقد نشأت الطوائف الدينية العسكرية، على أنقاض طائفة دينية نظمت في الأساس لخدمة المسيحيين، فالمعروف أن جماعة من المسيحيين المتدينين بمدينة أمالفي★ قد حصلت في سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م على إجازة من الفاطميين الذين كانوا يحكمون القدس باقامة نزل يؤوي جماعة من المتدينيين الأمالفيين الذين يعملون لخدمة الحجاج الفقراء. وتقرر تدشين الدار باسم القديس يوحنا المتصدق الذي اشتهر بالاحسان عندما كان بطريركاً في الاسكندرية في فترة الفتح الإسلامي. وكان معظم القائمين على هذه الدار من الرهبان الأمالفيين الذين تولى رئاستهم مقدم كان اسمه جيرار - عندما استولى الفرنج الصليبيون على القدس. وقد أفاد جيرار هذا من معرفته بالاقليم والسكان، فوضع نفسه وطائفته في خدمة ملك القدس وحكومته الجديدة، وحصل منها على أحباس - أوقاف - وانحاز عدد كبير من الحجاج لطائفته، التي لم تلبث أن أضحت طائفة مستقلة، تدين للبابا مباشرة بالولاء والطاعة، فزاد ما يجري بذله لها من الأراضي، وجعل لها معظم رجال الكنيسة عشر ما يرد إليهم من دخل. وجرى تسميتها (بطائفة الاسبتارية) وجرى أيضاً إحلال يوحنا الانجيلي محل يوحنا المتصدق★★. وعندما توفي هذا الجيرار سنة ٥١٢ هـ=١١١٨ م، خلفه راهب فرنسي

(★) أمالفي: (AMALFI) مدينة ايطالية تحتل موقعاً جبلاً على خليج سالبرن.

(★★) فرسان الاسبتارية: (HOSPITALIERS DE SAINT-JEAN) هي الطائفة الدينية التي نظمت في القدس، =

اسمه (ريموند لو بوييه). اشتهر بتطوير عمل طائفته من إرشاد الحجاج وإيوائهم إلى تنظيم طائفة من الفرسان المقاتلين، الذين يعاهدون على التقشف والطهارة والطاعة، وينذرون أنفسهم لقتال الوثنيين (المسلمين).

واتخذ فرسان الاسبتارية شارة تميزهم عن سواهم وذلك بأن جعلوا صليباً أبيضاً على أرديتهم التي يلبسونها فوق ثياب القتال.

وساعد على هذا التطور ما حدث في تلك السنة ذاتها (٥١٢ هـ = ١١١٨ م) حيث تقدم فارس من شامبانيا ـ اسمه هيو باينز ـ الى ملك القدس بلدوين الأول، وأقنعه بضرورة إنشاء طائفة تلتزم بالجانبين الديني والعسكري، ووافق الملك على الفكرة، وسمح لمقدم هذه الطائفة ولرجاله بالنزول في جناح بالقصر الملكي (بساحة المعبد ـ وهو المسجد الأقصى) ومن هنا حملت هذه الطائفة اسم (الداوية ـ أو فرسان المعبـد)★ ولم تلبث هذه الطائفة أن انتظمت في ثلاث طبقات: الفرسان، وكلهم من أصل نبيل. ثم الأجناد من البورجوازية، واعتبروا بأنهم هم ساسة الجماعة ومراقبيها، وأما الطبقة الثالثة فتألفت من رجال الدين الذين شغلوا الوظائف الدينية، وقاموا بكل ما لا يمت للعسكرية بصلة من الصلات.

واتخذوا الصليب الأحمر شعاراً لهم فوضعه الفرسان على أرديتهم البيضاء، ووضعه الأجناد على أرديتهم السوداء.

وكان من أول الواجبات التي تعاهد فرسان الداوية على الاضطلاع بها هي حماية الطريق الممتد من الساحل الى القدس، من هجمات المسلمين. ثم لم يلبثوا أن شاركوا في كل حملة نظمتها مملكة القدس. وأمضى مقدم الطائفة زمناً طويلاً وهو يتجول في بلاد أوروبا لحشد المتطوعين لطائفته.

بذل ملك القدس بلدوين للطائفتين كل دعم وتأييد، رغم أنهما كانتا مستقلتين عن

= وحصلت على عدد من القلاع والحصون في بلاد الشام وانتقلت عند خروج الفرنج وطردهم من عكا الى قبرص ثم الى رودس، ثم إلى مالطا.

(★) الداويـة ـ أو فرسان المعبد: (KNIGHTS-TEMPLAR).

سلطته، فلم تدينا بالطاعة والولاء إلا للبابا. ولم تتضمن الاقطاعات الكبيرة التي وهبها الملك وأتباعه للطائفتين أي شرط يلزم هؤلاء الرهبان الفرسان بالقتال مع جيش الملك. ولكنهم لم يبلغوا على كل حال، درجة من الثراء تسمح لهم بتحدي سلطة الملك، إلا بعد أن انقضى جيل على قيام مملكة الفرنج الصليبيين في القدس. ولكنهم في الوقت ذاته، أمدوا المملكة بما كانت تحتاجه وهو جيش منظم يضم جنداً مدربين يستطيع دعم الملك بامداد منتظم من المحاربين الأوفياء الذين لا يصرفهم عن الواجب أفكار تتعلق بالطموح الشخصي أو الربح الخاص.

تطور نمو الطوائف الدينية العسكرية باستمرار، سواء في زيادة عدد رجالها، أو في تعاظم ثروتها وممتلكاتها، حتى وصلت في سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م (سنة وقوع معركة حطين) إلى أن أصبحت هي التي تمتلك أكبر مساحة من الأراضي والاقطاعات في بلاد الشام، وذلك بفضل ما حصلت عليه من الهبات والأوقاف - الأحباس - وبما دأبت عليه باستمرار من ضم للأراضي. وانحاز الى صفوف هذه الطوائف عدد كبير من النبلاء. واضطرد قدوم المتطوعين من الغرب للانضمام إليها. ولم يكن عدد أفراد هذه الطوائف ثابتاً، بسبب تباين أعداد من ينضم إليها في كل سنة ومن يقتل منها، والمعروف أن طائفة الاسبتارية قد أرسلت مع قوات الحملة على مصر (سنة ٥٥٣ هـ = ١١٥٨ م) خمسمائة فارس تقريباً. كما شارك في معركة حطين ثلثمائة فارس. وكان هؤلاء من فرسان الطائفة في مملكة القدس، فقط، وكانت أعداد كبيرة منهم قد أقامت على شكل حاميات ثابتة في القلاع والحصون والمدن في كل امارة من إمارات الفرنج. ويظهر أن طائفة الاسبتارية كانت أكبر حجماً من طائفة الداوية. وتولى الاسبتارية والداوية حراسة الطرق، وخاصة منها الطريق الى المواضع المقدسة للاغتسال في نهر الأردن. وتميزت طائفة الداوية باهتمامها الكبير بالأمور الحربية. وما حازوه من الشهرة يرجع الى شدة بأسهم في الأعمال القتالية الهجومية. هذا مع ممارسة أعمال الصيرفة، والتجارة وعقد الصفقات، مما ساعدهم على إقامة علاقات مع المسلمين. وتوطيد صلاتهم مع طائفة الاسماعيلية (الحشاشين أو الباطنية).

عندما جاءت الحملة الصليبية الثالثة الى بلاد الشام (سنة ٥٩٣ هـ = ١١٩٦ م). ثم

عادت الى بلادها ممزقة. تركت في بلاد الشام طائفة من الالمان الذين تم تنظيمهم بصورة مماثلة لتنظيمي طائفتي الاسبتارية والداوية. وقد عـرفـت هـذه الطـائفـة التي اعتمدت بصورة أساسية على المقاتلين الألمان، باسم (طائفة فرسان التيوتون) وتلقت هذه الطائفة دعم ملك القدس ومباركة البابا، وتم الاعتراف بها على أنها طائفة عسكرية. وحصلت على اقطاعات وقلاع خاصة بها.

لقد ظهر خلال عرض الأحداث في الفصلين السابقين ما قامت به هذه الطوائف من أعمال قتالية، فكانت رأس الحربة في كل معركة، وكانت العامل المحرض وراء كل اشتباك. وهي الأشد وطأة على المسلمين بما كانت تمارسه من تحريض، وما تنشره من الأحقاد ومشاعر الكراهية، ولهذا اختصها المسلمون بالقتل كلما ظفروا برجالها. فلما طرد المسلمون بقايا الفرنج من بلاد الشام. تابعت هذه الطوائف التي عاشت للحرب ومن أجل الحرب وعلى حساب الحرب، دورها في التحريض على تجريد حملات جديدة، وبث روح الصليبية في الغرب، وأظهر البابا عطفه على مقدمي هذه الطوائف، ومهد لهم الطريق للاتصال المباشر بملوك الغرب. غير أن هؤلاء ـ وخاصة ملك فرنسا فيليب ـ قد غيروا مواقفهم من هذه الطوائف بعد أن انتهى دورها.

لقد وجدت هذه الطوائف أنها فقدت مجال العمل الذي عاشت له، فمضت طائفة فرسان التيوتون الى بلاد البلطيق لتقوم بفتحها وتستقر فيها. أما طائفة الاسبتارية، فقد عملت بما توافر لها من الثروة على شراء جزيرتي كوس ولیروس، وانطلقت منها للسيطرة على بقية جزر أرخبيل الدوديكانيز. وجعلت من رودس التي احتلتها بجهد وعناء، قاعدة لها. وحافظت على وجودها حتى القرن العشرين. أما طائفة الداوية، فكانت أكثر ثراء، إلا أنها كانت أكثر قدرة على إثارة العداء. والمعروف أنها ظلت زمناً طويلاً وهي تحتكر أعمال الصيرفة في العالم، وأكبر قوة لاقراض المال والحصول على الربا الفاحش. وأحرزت نجاحاً كبيراً في ممارسة مهنة لا تحظى بالاحترام. وأدى نشاطهم المالي إلى إقامة اتصالات وثيقة بالمسلمين، واتخذ كثير منهم أصدقاء لهم من المسلمين (الباطنية أو الاسماعيلية) واهتموا بالديانة والدراسات الإسلامية. وشاع عن الداوية بأنهم يدرسون وراء أسوار قلاعهم فلسفات غريبة، ويمارسون أعمالاً وصفت

بالهرطقة. وكان للمبتدئين ـ المريدين ـ شعائر منافية للدين والأخلاق. وكثر الحديث عما يصحب ممارسة الرذائل المنافية للطبيعة من شعائر العربدة. فلما كان شهر تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٣٠٧ م. أصدر ملك فرنسا فيليب بالقاء القبض على كل من كان في فرنسا من رجال الداوية، ومحاكمتهم بجرائم الألحاد التي صاغها رجال من الداوية ذاتهم، أعلنوا توبتهم، وجمعت الاعترافات. فلما كان ربيع السنة التالية، أصدر البابا الأوامر إلى كل أمير بالقاء القبض على الداوية في بلاده. ومصادرة ممتلكاتهم. وتعرض كثير منهم للقتل والحرق في فرنسا. بينما ألقي بهم في جميع أنحاء أوروبا في السجون.

هكذا انتهى أمر الفئة الباغية التي أفرزتها الحروب الصليبية، واستخدمتها عندما كانت هناك حاجة لاستخدامها، ثم دمرتها بعد أن تحولت إلى عبء ثقيل يرهق كاهلها. ولم يبق من وجود هذه الطائفة سوى ما زرعته من الحقد والكراهية والعنف والتطرف. وقد أكلت النار بعضها بعضاً إذ لم تجد ما تأكله.

٤ ـ الصراع السياسي والصراع المسلح.

عندما احتل الفرنج الصليبيون دمياط سنة ٦١٥ هـ = ١٢١٨ م. عرض الكامل بن الملك العادل الأيوبي على الفرنج أن يعيد إليهم القدس مقابل انسحابهم من مصر، فرفضوا إلى أن تم طردهم من مصر بالقوة. وعندما عاد الفرنج الى دمياط سنة ٦٤٧ هـ = ١٢٤٩ م، عرض الاخوة الأيوبيين عرضاً مماثلاً فرفضوه، إلى أن تم أسر ملكهم لويس التاسع وتطويق قواتهم في المنصورة، وطردهم من مصر بقوة السلاح، وقبل ذلك، وفي سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م هاجم الفرنج مصر، واحتلوا سواحلها، فعقد الملك العادل هدنة مع الفرنج. وأعطاهم يافا مقابل خروجهم من مصر ويمكن اعتبار هذه النماذج الثلاثة امثولات لاقتران الصراع السياسي بالصراع المسلح في الحروب الصليبية القديمة. **أما ما حدث سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م عندما أعاد الملك الكامل مدينة القدس الى الفرنج بموجب هدنة تم عقدها مع امبراطور الغرب وملك ألمانيا ـ فريدريك الثاني ـ. فيمكن اعتبارها صراعاً سياسياً جرى تحت قعقعة السلاح، ولكن بدون اللجوء الى استخدامه.** والأمثلة بعد ذلك كثيرة جداً، مما تضمنه عرض الأحداث في الفصلين السابقين، ولقد جاء الفرنج بجحافلهم لتحقيق أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية تندمج جميعها في تيار ديني ـ صليبي ـ فكان لا بد من أن يشمل الصراع المسلح عوامل الصراع السياسي. ويظهر أن الهجمة الصليبية الأولى قد حققت تلك الأهداف جميعها. ولهذا فقد هيمن الصراع المسلح على جميع الأهداف وجعلها تابعة له. واستمر الصراع المسلح هو المهيمن حتى يوم حطين. وإذ ذاك تبين للفرنج أنه من المحال عليهم المحافظة على وجودهم، والابقاء على كياناتهم، بالاحتكام إلى السلاح دائماً، وأنه لا بد من البحث عن وسيلة للتعايش مع المسلمين. وقد برزت هذه الحقيقة واضحة في محاولات فريدريك الثاني لاستعادة القدس ـ دون أي اشتباك أو معركة ـ وعندما تم له ذلك، عاد إلى بلاده. ثم تأكدت هذه الحقيقة مرة أخرى،

وبشكل أكثر وضوحاً، عندما قدم ملك فرنسا لويس التاسع على رأس حملته، واحتل دمياط. فنصحه الفرنج المقيمين في بلاد الشام بقبول مبادلة القدس بالانسحاب من دمياط، غير أن ملك فرنسا المشبع بروح الصليبية الأولى، امتنع عن اجراء حوار سياسي مع المسلمين. فهو ما جاء على رأس جيشه إلا لقتال الكفار ـ المسلمين ـ. وإذ تم أسره وتدمير جيشه، أصبح مقتنعاً بأهمية الصراع السياسي، وتبين له فائدة هذا الصراع عندما استطاع أن ينتزع مكاسب من جميع أمراء المسلمين والافادة من صراعاتهم الداخلية، لضرب بعضهم ببعض، واستثمار التناقضات لحل مشكلات الفرنج على حساب المسلمين وبلادهم. واستمر بعد ذلك الصراع السياسي والصراع الاقتصادي في ممارسة الدور المهيمن ـ بصورة عامة ـ على الصراع السياسي، والموجه له. ولكن بقي الصراع المسلح هو الأداة النهائية لحل التناقضات، عندما تصل هذه التناقضات إلى مأزق صعب لا يمكن حله إلا بالعودة الى الاحتكام للسلاح. وهذا ما يفسر تباعد الحدود الزمنية الفاصلة بين المعارك الكبيرة والاشتباكات الحاسمة.

تظهر عملية استعراض الأحداث والوقائع المرتبطة بالصراع السياسي مجموعة من الحقائق:

أولها: لقد كان كل طرف من الأطراف المتصارعة يحاول تحقيق أكبر قدر من المكاسب التي لم يتمكن من تحقيقها بقوة السلاح. وأن هذه المكاسب ذات صفة مرحلية، غير ثابتة ولا مستقرة، نظراً لاعتقاد الأطراف المتصارعة بأنها لا تمثل حتى الحدود الدنيا من أهدافها، غير أن ظروف الصراع المسلح ـ الداخلية والخارجية ـ قد فرضت اللجوء اليها وقبولها.

وثانيها: واستناداً الى الحقيقة السابقة، فقد كان كل طرف من الأطراف المتصارعة يحاول استثمار كافة الظروف الداخلية والخارجية من أجل إعادة بناء قدرته الذاتية، وتنظيم قواته المقاتلة، ودعم جبهته الداخلية، وتسوية مشكلاته، استعداداً لالغاء المكاسب السياسية، وزيادة هامش العمل العسكري بما يتوافق وأهداف الصراع الأساسية.

وثالثها: واستناداً الى الحقيقة السابقة أيضاً، فقد كانت التسويات السياسية لا تحظى باحترام المقاتلين على جبهتي الصراع، نظراً لتناقضها مع الأهداف التي تكونت القناعة بفائدتها وأهميتها عبر الصراع المسلح المرير، وعبر التوجيه الفكري والديني، فكانت مقاومتها التدرجية على مستوى المقاتلين هي البداية - دائماً - للعودة الى الصراع المسلح.

ورابعها: أن هذه التسويات لم تكن باستمرار متوافقة مع مراكز القوى المختلفة على جبهتي الصراع، ولا منسجمة مع مصالحها، مما كان يفسح المجال للصراعات الداخلية وتفتيت القوى الكامنة في جبهات الصراع. وكانت القيادة الأقوى، هي القيادة التي تستطيع الهيمنة على مراكز القوى المتنافرة. وحملها بالإكراه على قبول التسويات السلمية. غير أن هذا الإكراه لم يكن ليزيل عامل (المصلحة). فكان ضعف الضغط القيادي لسبب من الأسباب الطبيعية أو الاصطناعية - الانفعالية - كافياً لإعادة تفجير الموقف.

وخامسها: أنه كلما توافرت للقيادة مركزية قوية، كلما أمكن للتسويات السياسية، أن تحقق نجاحات أكبر، وأن تتضمن قدراً أقل من الخسائر والتنازلات. وكلما تنافرت مراكز القوى وتمزقت كلما حقق أحد الأطراف - الذي يمارس المركزية القوية في القيادة - أن يحقق مكاسب أكبر على حساب مراكز القوى المتنافرة.

لقد جاءت الحملة الصليبية الثالثة، وخاض قائدها (ريتشارد قلب الأسد) صراعاً مريراً ضد قوات المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، ولكنه عندما أدرك أنه من المحال عليه وعلى قواته الوصول الى القدس. وأنه من الصعب الحصول على انتصارات حاسمة. اكتفى بما حققه من انجاز وهو تجميد قوات المسلمين وحرمانها من فرصة تطوير مكتسباتها وأعمالها القتالية، وشرع في إجراء المفاوضات مع صلاح الدين، وقد استمرت هذه المفاوضات زهاء عام كامل، وتخللتها معارك واشتباكات كثيرة. حاول الطرفان بواسطتها الحصول على انجازات تساعد على دعم الحوار السياسي. وفي النهاية، وعندما تم الاتفاق السياسي، لم يتضمن أكثر من تجميد للوضع العسكري وبصورة مؤقتة.

ومقابل ذلك، وعلى الرغم من الفشل الذريع والهزيمة المنكرة التي نزلت بقوات الفرنج في المنصورة، فقد استطاع لويس التاسع تحقيق مكتسبات كثيرة لم يكن يحلم بها وهو أسير في المنصورة. ولم يكن ذلك إلا نتيجة لتمزق جبهة المسلمين وتنافر أقطابها وصراع ملوكها وامرائها. وتكررت هذه الظاهرة ذاتها عندما جاء فريدريك الثاني، فأفاد من تمزق الجبهة الإسلامية لانتزاع المكاسب من كل امراء المسلمين المتصارعين.

لقد سبقت الإشارة إلى أن الصلح الذي عقده فريدريك الثاني مع السلطان الكامل (سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م) والتي قضت باعادة القدس الى الفرنج، لم تعجب المسلمين ولم تحظ برضى الفرنج. فقد وجد الفرنج أنها لا تحقق الحد الأدنى من طمعهم، ووجد فيها المسلمون غدراً بتضحياتهم وجهودهم: وتفريطاً بما أحرزوه بقوة السلاح. وكان الوفاء لأرواح الشهداء، وتضحياتهم عاملاً وضعه الطرفان في اعتبارهما، مما حمل مجاهدي المسلمين ومقاتلي الفرنج على رفض الاتفاق، الذي لم يعمر طويلاً على كل حال، إذ سرعان ما اندفعت جماهير المسلمين لاحباط الجهود السلمية، فتم طرد الفرنج نهائياً من القدس (على أيدي الخوارزمية). وسبقت الإشارة أيضاً إلى أن هذه الاتفاقات قد أدت أحياناً إلى نشوب صراعات دامية بين الفرنج - مثل ذلك القتال العنيف الذي اندلع بين البنادقة والبيازنة والجنويين - على امتداد ساحل بلاد الشام، والذي استمر طويلاً، واستنزف كثيراً من قدرة الفرنج وامكاناتهم.

لقد عرف ملوك الفرنج ما بين ملوك المسلمين وامرائهم من صراعات وتناقضات فاستثمروها. غير أن ملوك المسلمين وامرائهم لم يكونوا أقل معرفة بالفرنج وما بين مراكز القوى المختلفة من تناقضات. وقد أمكن لهم في مرات كثيرة استثمار هذه التناقضات بصورة جيدة لتمزيق الجبهة الداخلية للفرنج وإضعافها واستنزافها. وقد أظهر ملوك المسلمين وامراءهم - عامة - كفاءة عالية في استخدام قدرتهم العسكرية لتعميق التناقضات بين الفرنج ومراكز قواهم المختلفة، فكانوا يمنحون حمايتهم ورعايتهم للمتعاونين معهم من الفرنج، في حين يشتدون في حربهم وعدائهم لمن يعادونهم. مما حمل ملوك الفرنج وامرائهم على التماس صداقة أمراء المسلمين، والتعاون معهم إلى درجة التحالف في مرات كثيرة.

لم يكن ملوك المسلمين وامرائهم يخافون من العمل السياسي، طالما أن هذا العمل لا ينتقص من قدراتهم الذاتية، ولا يحد من حرية عملهم العسكري إلا بقدر ما يحد أيضاً من حرية العمل العسكري للفرنج ذاتهم. وكانوا على ثقة دائماً أن الصراعات بين مراكز القوى للفرنج، وأن التكوين العدائي للفرنج، وأن الدور الذي تمارسه الطوائف الدينية والعناصر المتطرفة، سيفجر في النهاية كل جهد سياسي، وأنه لا بد من استئناف الحرب، ولعل هذا السبب هو الذي حمل مؤرخي المسلمين على التمسك باصطلاح (الهدنة) عند عقد كل اتفاق سياسي بين المسلمين والفرنج.

وعرف المسلمون منذ البداية أن كيانات الفرنج على أرض بلاد الشام، ومملكتهم، وإماراتهم، مرتبطة برباط - أو بروابط - وثيقة بملوك الغرب، ولهذا فقد حرصوا على خوض الصراع السياسي - الديني - معهم. وأمكن لهم اصطناع صداقات كانت مفيدة في كثير من الأحيان، مثل تلك التي انعقدت أواصرها بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد. ومثل صداقة فريدريك الثاني مع الكامل، ومثلها صداقة ادوارد ملك انكلترا والظاهر بيبرس. وكذلك صداقة ملك صقلية - شارل انجو - مع بيبرس وقلاوون. وأفاد المسلمون من هذه الصداقات لكبح جماح تطرف الفرنج، وإثارة التناقضات بينهم، بل إن فريدريك الثاني كان يزود الكامل بالمعلومات عن الحملات الصليبية المحتملة (حملة لويس التاسع التي انتهت في تونس). ويتبادل الرسائل في بعض القضايا، غير أن العمل السياسي من خلال هذه العلاقات لم يعطل من مسيرة الصراع المسلح، ولم يكن بديلاً عنها، وانما استخدم لدعم الصراع المسلح وتطويره. وذلك لايمان المسلمين وقادتهم ايماناً مطلقاً بحتمية انتصار الحل العسكري في النهاية، فكان عملهم السياسي مع ملوك الغرب هو لاقناعهم بصورة مباشرة بعقم مشروعهم الصليبي وعدم فائدته، بينما كان الحسم على أرض القتال هو وسيلة الاقناع المباشرة.

وهكذا عمل المسلمون على تحويل الكيانات الصليبية إلى أعباء مرهقة، أرهقت ملوك الغرب، واستنزفتهم، وجعلتهم يقفون في النهاية موقف المتفرج عندما انهارت عكا - آخر كيانات الفرنج التي بقيت على أرض الشام -. ولعل من المثير حقاً ملاحظة أن الصراع السياسي الذي برز أكثر من سواه قد جاء مقترناً باسماء كبار

الرجال في المعسكرين، المتصارعين على جبهتي القتال، على نحو ما سبق ذكره. بينما جاءت الجهود السياسية الفاشلة على أيدي قادة صغار أو فاشلين من أمثال ملك فرنسا لويس التاسع الذي جلب لبلاده من المآسي ما لم يجلبها سواه. وحمل لقواته من الفشل ما لم يحملها سواه.

هناك حقيقة لا بد من الاشارة إليها، لقد أسهم الصراع السياسي اسهاماً كبيراً في الابقاء على وجود الفرنج في بلاد الشام. فقد وصل الفرنج واحتلوا القدس سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م. ووقعت معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م. وفتح المسلمون عكا سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م. والمعروف أن ما جرى بعد حطين من صراعات سياسية وحملات صليبية هي التي أبقت على وجود الفرنج زهاء مئة عام ونيف. غير أنه من المحال إعطاء الصراع السياسي أكثر من دوره في تأخير طرد الفرنج من بلاد الشام. إذ أسهمت في ذلك أيضاً مجموعة من العوامل، منها هجوم المغول التتار - ومنها حملات الفرنج على مصر. ومنها صراعات المسلمين على الجبهة الداخلية. وإذا كان للصراع السياسي دوره، فهو لا يتجاوز حدود إعطاء فترات متباعدة بين الأعمال القتالية، التي كانت تعمل دائماً على إحراق المراحل الزمنية، والتعجيل بمسيرة الأحداث، ودفعها حتى نهايتها القصوى بسرعة مذهلة.

٥ ـ العامل الاقتصادي ـ والانسان المسلم.

عندما حاصر المسلمون قوات الفرنج، القائمة على حصار عكا (سنة ست وثمانين وخمسمائة) أورد المؤرخ ابن الأثير العبارة التالية: «اشتد الغلاء على الفرنج، حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صوري، فصبروا على هذا. وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان. منهم الأمير اسامة مستحفظ بيروت، كان يحمل الطعام وغيره. ومنهم سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب ـ الذي كان يحمل من صيدا أيضاً إليهم. وكذلك من عسقلان وغيرها. ولولا ذلك لهلكوا جوعاً، خصوصاً في الشتاء عند انقطاع مراكبهم عند تهيج البحر».

والسؤال الذي يفرض ذاته هنا هو: «هل كان المسلمون يرغبون ببقاء الفرنج في بلادهم؟ ولماذا لم يتركوهم وشأنهم حتى يهلكوا جوعاً؟». وقد يكون من الصعب الاجابة على مثل هذا السؤال بمعزل عن مجموعة العلاقات التجارية والاقتصادية التي جرت أثناء فترة الحروب الصليبية. فالمعروف أن الامارات الصليبية التي أقيمت على امتداد سواحل بلاد الشام. قد جعلت موانىء التجارة مع الغرب في قبضة الفرنج الصليبيين. ولكن المسلمين احتفظوا بسيطرتهم الاقتصادية، إذ كانت قوافلهم هي التي تنقل المنتجات الزراعية والصناعات المختلفة من سائر المشرق الإسلامي. فأفاد الفرنج من الرسوم التي فرضوها على مرور هذه المتاجر. وبذلك استمر تدفق التجارة بصورة منتظمة. وقام تعاون وثيق بين تجار المسلمين وتجار الفرنج في سواحل بلاد الشام. وخاصة البنادقة والجنويين والبيازنة الذين احتكرت أساطيلهم نقل التجارة عبر البحر الى سائر أرجاء أوروبا. وقد وجد تجار المسلمون أن الفرصة مؤاتية لاستثمار ضائقة الفرنج، وبيع منتجاتهم بأثمان مرتفعة، وكان المسلمون يتقوون بما يحصلون عليه من الأرباح لدعم قدرتهم الذاتية ـ لاسيما وأنه قد ظهر للمسلمين أن الفرنج قد صمدوا

للضائقة التي نزلت بهم ـ. وأدركو أن مثل هذه الضائقة لا يمكن لها أن تقضي على وجود الفرنج. فكان في رأيهم استثمارها والإفادة منها.

يمكن مقارنة هذا الموقف بموقف مضاد جاء بعد اثني وسبعين عاماً، ففي سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م. خرج المظفر قطوز بجيش المسلمين الضخم من مصر لقتال المغول التتار، واضطر للسير على امتداد الساحل للوصول الى الشمال، كما اضطر للحصول على المواد التموينية والامدادات لجيشه الكبير، فأرسل سفارة إلى عكا. ووافق الفرنج على السماح لجيش المسلمين بالمرور من أراضيهم، وقدموا له ما يحتاجه، بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك عندما استضافوا أمراء الجيش في عكا، واستقبلوهم ونظموا لهم الزيارات، ولم يكن ذلك مجرد ظاهرة من ظواهر الفروسية التي اشتهرت بها حروب القرون الوسطى، بقدر ما كانت استجابة طبيعية لمتطلبات التعايش خلال فترة حروب استمرت مائتي عام. ولقد أفاد الفرنج ـ مرحلياً ـ بالحصول على أموال وخيول وسواها دعمت من قدرتهم الحربية. وهكذا كان التعاون التجاري ذو هدف واضح وهو دعم القدرة القتالية الذاتية للطرفين المتصارعين.

لقد عرفت الحرب الصليبية القديمة نوعاً مميزاً من الحرب الاقتصادية ذات الظواهر المتعددة، والأشكال المتنوعة: منها التدمير المتبادل للموارد الزراعية، ومنها النهب المتبادل للقرى والمدن، ومنها استخدام الأسرى لأعمال الزراعة والصناعة والبناء، ومنها الهجوم على القوافل التجارية. ومنها أيضاً أعمال الحصار والتطويق والعزل للمدن والحصون. وكانت البداية على أيدي الفرنج عندما عملوا على تدمير كل ما يصادفونه في طريقهم خلال هجومهم الأول. ولكن سرعان ما تبين لهم أنهم هم الخاسرون من هذا التدمير، إذ بقي الشريط الساحلي، وما يتضمنه من المزارع والحقول هو موردهم الحياتي الأول، وعليه يعتمدون في تأمين متطلباتهم التموينية. كما كانت مواردهم البشرية موجهة بصورة أساسية للحرب لا للزراعة والبناء والصناعة، ولم تكن لديهم أصلاً المهارات الصناعية التي عرفتها أقطار العالم الإسلامي، وخاصة ما اشتهرت به بلاد الشام وصناعها من المهارات. فتوقفوا عن أعمال الإبادة، وأخذوا في الاحتفاظ بالأسرى لاستخدامهم للبناء والزراعة والصناعة. وقد بقي هذا شأنهم حتى وقت

متأخر. وقد ظهر ذلك واضحاً أيام الظاهر بيبرس، عندما اشترط بيبرس اطلاق سراح أسرى المسلمين الذين يحتفظون بهم، قبل أي اتفاق. وعندما رفض الداوية ـ خاصة ـ اطلاق سراح المسلمين ـ وعمال الصناعة منهم بصورة محددة ـ. غضب بيبرس، وامتنع عن الاتفاق مع الفرنج، وشن عليهم حرباً شعواء هدفها الأساسي تحرير أسرى المسلمين.

أدرك المسلمون أهمية الخنق الاقتصادي في تضييق الخناق على الفرنج، منذ البداية، فأخذوا في تدمير المزارع والحقول تدميراً منهجياً منظماً، بداية من أقصى الشمال وحتى أقصى الجنوب، وانطلقت سراياهم وكتائبهم وهي تجوب المناطق التي فرض الفرنج سيطرتهم عليها، لتنهب قطعان الماشية ولتدمر المزارع ولتحرق الحقول. وإذ تأكدت للمسلمين أهمية الخنق الاقتصادي أصبحت الإغارات على ممتلكات الفرنج تحتل المرتبة الأولى في سلم الأفضليات، وتسبق وترافق كل عملية هجومية كبرى. وقد اضطر الفرنج نتيجة لذلك الى التماس متطلباتهم الحياتية تارة من قبرص، وتارة من بلاد البيزنطيين ـ الروم ـ أو منهما معاً ومن سواهما، ووصل الأمر أحياناً إلى تنظيم أعمال هجومية كبيرة للحصول على المواد التموينية، وكان المسلمون يعرفون ذلك، فيعدون العدة لمجابهة هجمات الفرنج المتوقعة وإحباطها، بل إن مثل هذا الصراع حول الموارد الاقتصادية، كثيراً ما أخذ شكل نزاع مثير، حيث يباغت الفرنج بعض الأقاليم للاستيلاء على قطعان الماشية والخيول والأغنام، فتسرع قوات المسلمين لنصب الكمائن ومطاردة المؤخرات حتى يتم لها استرداد (الغنيمة). وكان الصراع على الموارد الاقتصادية في مرات كثيرة هو العامل الأساسي لتفجير الحرب وتصعيد الصراع المسلح. والمعروف أن أحد العوامل التي فجرت الصراع وأدت إلى وقوع معركة حطين، كانت قيام أمير الكرك ـ رينالد شاتيون ـ على قافلة من قوافل المسلمين، ونهبها.

ومقابل ذلك، أظهر المسلمون اهتماماً كبيراً بتنمية مواردهم الاقتصادية ـ الزراعية والصناعية ـ لتلبية متطلبات الحرب. وكان الزنكيون هم أول من أدرك ضرورة تنمية الموارد الزراعية، فعملوا على استصلاح الاقليم المحيط بالموصل، حتى أصبح حقولاً

زراعية متصلة، وحتى تحول إلى منطقة مكتظة بالسكان، تضج بالحياة، بعد أن كانت خراباً. واستمروا على هذا النهج وطوروه في سائر بلاد الشام. ولم يكن جهدهم لضم مصر لمسيرة الجهاد في سبيل الله، إلا ليتقوى بها المسلمون على أعدائهم، وللإفادة من مواردها البشرية والزراعية. فربطوا بذلك بين التكامل الاقتصادي والكمون الحربي في صورته البسيطة الأولى. وإذ لجأ الفرنج للإفادة من أسرى المسلمين لاعمال الزراعة والبناء، فليس هناك ما يمنع من استخدام الوسيلة ذاتها، لاسيما وأنه توافر في مصر في بعض الأوقات آلاف الأسرى - الذين فاقوا في عددهم ما ضمته جيوش مدن الفرنج من أعداد المقاتلين - فتم توجيههم لاعمال الزراعة والبناء وسواها من الأعمال التي تتطلب جهد الطاقة البشرية. فكان الفرنج هم الخاسرون دائماً، إذ بينما كانت المساحات الزراعية التي استولى عليها الفرنج محدودة وضيقة. كان لدى المسلمين من الموارد الهائلة ما يضمن لهم الامداد المنتظم لقواتهم. فكانت أعمال التدمير المتبادلة تلحق الضرر بالفرنج أضعافاً عما كانت تلحقه بالمسلمين. هذا بالاضافة إلى امتلاك المسلمين قدرات أكبر وامكانات أوفر لحماية اقتصادهم وممتلكاتهم ضد هجمات الفرنج المباغتة، نظراً لتفوقهم في أساليب الحركة، وفي الأساليب الهجومية.

لقد أثار المسلمون أكثر من حرب ضارية، بسبب استيلاء الفرنج على قافلة تجارية، أو بسبب إغاراتهم العنيفة على اقليم من أقاليم بلاد الشام ونهبه وتدميره. وقد يبدو ذلك غريباً للوهلة الأولى، إذ قد لا يستحق ضياع قطيع من قطعان الأغنام، أو فقد قافلة من القوافل، إجراء مثل تلك الحشود، وتحمل مثل تلك المشقة، والتعرض لمثل تلك الخسائر، لاسيما وقد ملك الفرنج مدناً ومناطق أكثر قيمة من القطيع أو القافلة. غير أن المسلمين لم تكن نظرتهم محددة بالقيم المادية، بل كان ما هو أكثر أهمية بالنسبة لهم: المحافظة على أمن المسلمين وروحهم المعنوية، واستعدادهم القتالي. وهنا يظهر الفارق المميز بين حرص الفرنج على استعادة أسراهم وبين حرص المسلمين على استعادة أسراهم. فلقد كان الفرنج يرغبون في استعادة الأسرى لزيادة قدرتهم القتالية والانتاجية والإدارية، في حين كان المسلمون يعملون على استعادة الأسرى حفاظاً على فضائل المسلمين وتجنيبهم مذلة الأسر، ومهانة فقد الحرية، وحملهم على الاعتزاز بالأمة

التي إليها ينتسبون، ومن أجل قضيتها يحاربون فَيُقْتَلونَ، وَيَقْتُلونَ، ويؤسرون ويأسرون. وكان هذا الرباط المعنوي أشد قداسة وأكثر أهمية بالنسبة للمسلمين، وقد تكون النتيجة المباشرة واحدة بالنسبة للطرفين المتصارعين، غير أن النتيجة غير المباشرة - أو البعيدة - كانت مختلفة تماماً، إذ أنها زادت من تلاحم المسلمين وتماسكهم، بينما أدت الى تفتت الجبهة الداخلية للفرنج وضعفها.

لقد بقي الإنسان المسلم عزيزاً على الدولة الإسلامية، كريماً على الأمة الإسلامية، رغم ما أنزلته الحروب الصليبية بساحته من النكبات، وما تعرض له من البلاء والابتلاء. ولقد أظهر عرض الأحداث مدى اهتمام أمراء المسلمين بجندهم وأمتهم - لا باعتبارهم قدرة انتاجية، ولا باعتبارهم قدرة مقاتلة - بل باعتبارهم كرماء لما كرّمهم الله به من الإسلام ولهذا فكان كل عمل يقوم به الفرنج ضد المسلمين كان امراء المسلمين يقابلونه برد أقوى، وأكثر عنفاً. وصحيح أنهم لم يستطيعوا مجاراة الفرنج بفظائعهم ومذابحهم، بسبب تناقض هذه الفظائع والجرائم مع الفضائل الحربية للمسلمين، إلا أنهم كانوا في ميادين القتال أشد بأساً على الفرنج، وأقسى انتقاماً، غضباً لله ودينه وأمته، **(أشداء على الكفار رحماء بينهم)**.

وقد ظهر ذلك بوضوح أكبر في صراعات المسلمين بعضهم ضد بعض، إذ كان الصراع لا يتجاوز على الأكثر حدود الحصار، والاشتباكات الثانوية. وكثيراً ما حدث أن تنازل أحد الأطراف عن حقه رغم ما يمتلكه من القدرة والقوة، حقناً لدماء المسلمين، وحفظاً لقدراتهم، بينما كان الصراع الداخلي للفرنج يأخذ شكلاً وحشياً رهيباً لا رحمة فيه، مثل ما تعرضت له القسطنطينية على يد الفرنج من نهب وتدمير واستباحة (سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م). وكذلك ما حدث من قبل، عندما أغرت الكنوز والثروات المتراكمة في قبرص، أحد الأمراء الفرنج - رينالد شاتيون - بقيادة حملة إلى قبرص (سنة ٥٥١ هـ = ١١٥٦ م). وصفتها المصادر التاريخية بما يلي:

«وصار الفرنج والأرمن يذرعون الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، ينهبون ويسلبون كل ما أبصروه من العمائر؛ من الكنائس والأديرة والدكاكين والمنازل الخاصة. وأشعلوا الحرائق في المحصولات الزراعية، وقاموا بتطويق القطعان

وساقوها مع جميع سكان الجزيرة الى الساحل. فانتهكت أعراض النساء، وتعرض للقتل الأطفال والشيوخ لعجزهم عن المسير، وما أجروه من القتل والنهب بلغ من اتساع نطاقه ما قد يحسدهم عليه الهون أو المغول... ولم تنتعش أبداً جزيرة قبرص من التخريب الذي أحدثه الفرنسيون وحلفاؤهم الأرمن».

فهل من الغريب إن تلاحم العامل الاقتصادي، بالعامل البشري، وتلاحم العامل المادي بالعامل المعنوي، وتلاحمت قاعدة جبهة المسلمين وقيادتها، في إطار الهدف الكبير الذي هو الدفاع عن الإسلام وأهله ضد أشرس وأقوى حرب عرفها التاريخ في القديم والحديث؟ وهل من الغريب أن ينتصر المسلمون، وقد توافرت لهم العوامل الأساسية لاحراز أي نصر؟. لم يكن ذلك أمراً غريباً، غير أن الظاهرة المثيرة حقاً هي تكامل عوامل الصراع بصورة مذهلة، وتوازنها، وتضافرها في إطار هدف الحرب، وهو الهدف الذي صهر في بوتقته كافة التناقضات التي كانت تنشب بصورة طبيعية بين المسلمين، والتي حاول الفرنج استثمارها بكل جهد مستطاع، فنجحوا أحياناً، وفشلوا في النهاية. وكان فشلهم من دروس التاريخ التي لا تنسى.

٦ ـ قصة المعركة الإسلامية وتطورها.

لقد أظهر عرض الأحداث الأشكال المختلفة للمعركة الإسلامية خلال فترة الحروب الصليبية. وأكد هذا العرض تطور المعركة الإسلامية تطوراً كبيراً، ولكن هذا التطور بقي محدداً بخصائص فن الحرب الإسلامي وقواعده، ولعل من أبرز أشكال المعركة في هذه الحقبة، المعركة التصادمية، والمعركة الدفاعية، والهجوم على القلاع والحصون. ونظراً لاتساع مسرح العمليات، فقد تطور اسلوب تعبئة القوات وحشدها، وزجها في المعركة. وتلخصت قصة المعركة بصورة عامة بما يلي:

تتجمع جيوش المسلمين في بداية فصل الربيع، وتسير نحو هدفها، الذي غالباً ما يكون امارة من امارات الفرنج أو مدينة من مدنهم، فتنضم إليها جيوش المدن القريبة من الهدف، وتكون طلائع المسلمين وشبكات استطلاعهم واستخباراتهم ـ جاسوسيتهم ـ قد اندفعت أمام الجيوش لجمع المعلومات وتحديد قوة العدو، وأهدافه وتحركاته، وكثيراً ما تعمل هذه المقدمات على الايقاع بمقدمات العدو، (في كمائن) أو تباغتها بهجمات سريعة، فتقتل من تقتله منها وتأسر من تستطيع أسره. ثم هي تخبر أمير الجيش ـ القائد العام ـ بما يتوافر لها من المعلومات، فيتحرك الجيش نحو جيش العدو في ترتيب المسير، حتى إذا ما وصل الجيشان إلى ساحة المعركة، نظم الطرفان قواتهما على الشكل المعهود، مقدمة، وميمنة وقلب وميسرة، ومؤخرة وهذا هو التنظيم الذي كان يعرف باسم (المصاف). وتبدأ المعركة بالاشتباكات ثم تطور إلى قتال عنيف غالباً ما ينتهي بالحسم لمصلحة أحد الطرفين، وقد ينتهي بدون حسم، فينسحب الطرفان، وقد نزلت بقواتهما الخسائر، ويحق لكل طرف أن يزعم لنفسه النصر. طالما أنه لازال يحتفظ بكتلة جيشه الرئيسة وهي في حالة سليمة وقادرة على خوض المعركة من جديد. وقد يجد أحد الطرفين أنه لا يحقق كسباً من خلال المعركة، فيبادر الى الانسحاب دون قتال.

لقد أظهر المسلمون تفوقهم في هذا النوع من المعارك، إذ كانوا يحرصون على اختيار الأرض المناسبة لحرب الحركة، والتي تسمح لهم باجراء التطويق المزدوج، والتي تتوافر فيها امكانات انتشار القوات واخفائها وتمويهها. فكانوا يعملون على نشر قواتهم خلف التلال، ويدفعون قوة كافية للاشتباك مع الفرنج، ثم يتظاهرون بالهزيمة (يتطاردون أمامهم) مما يغري قوات الفرنج للانقضاض بكل ثقلهم على القوة التي تواجههم، غير مدركين أن هذه القوة ليست إلا قسماً من الجيش الأساسي. وعندها يجدون أنفسهم وقد أحيط بهم من كل جانب، فتتحول المعركة الى مذبحة قاسية. وتحاول قوات الفرنج الخروج من دائرة الحصار، فتفشل في ذلك، إلا فلولاً ممزقة منها تحمل جراحها لتخبر عما تعرضت له قوات الفرنج من كارثة. وقد جرت معركة حطين على هذا النحو، ومثلها كانت معركة عين جالوت، ومثلها أيضاً معركة المنصورة، وكثير من المعارك الكبرى وحتى الصغرى.

لقد عرف الفرنج تفوق المسلمين عليهم في أساليب حرب الحركة، فحاولوا تجنب الاغراء الذي كان يقدمه لهم المسلمون لجرهم إلى أرض القتل، وامتنعوا عن المطاردة في كثير من الأحيان، الأمر الذي حرمهم من القدرة على الحسم في ميدان المعركة. وبات باستطاعة المسلمين إذا ما استعصى عليهم إحراز النصر، الانسحاب الى موقع قريب، وإعادة تنظيم قواتهم، أو استقدام قوات دعم إضافية لخوض المعركة ذاتها أو البحث عن معركة جديدة. كما حاول الفرنج اللجوء إلى إقامة الموانع، وحفر الخنادق، لحرمان المسلمين من ميزة تفوقهم في حرب الحركة، إلا أنه كان باستطاعة المسلمين الافادة من نقطة ضعف في تنظيم العدو القتالي للانقضاض عليه. ولقد تطلب ذلك بالضرورة، إجراء عمليات الاستطلاع بالقوة - الاغارات والهجمات المباغتة والانسحاب - لمعرفة حدود التنظيم القتالي للفرنج، وطبيعته، وقوته، من أجل توجيه القوات نحو الهجوم الحاسم الذي يبدأ عادة بتطويق العدو وحصاره.

كانت قوات الفرنج تحاول قدر المستطاع تجنب الصدام في المعركة التصادمية، إلا إذا أمكن لها تحقيق المباغتة. وكان يتم لها ذلك في بعض الأحيان، وعندها تمسك

بالمبادأة، وتزج بقواتها لخوض معركة ضارية. وعندها كانت قوات المسلمين إما أن تخوض المعركة مرغمة ـ في ظروف غير مناسبة، وغالباً ما كانت تدفع الثمن غالياً، وتنسحب إذا ما استعصى عليها تحقيق النصر، وإما أن تنسحب تحت حماية مؤخرات قوية. لتعيد تنظيم قواتها. ومهما كان عليه الأمر، فقد تميزت هذه المعارك التصادمية بالعنف الشديد، والذي وصفه المؤرخون بعبارات دقيقة مثل: «اشتد القتال بين الطرفين، حتى أفرغ الصبر، وحتى ظن الطرفان أنه الهلاك والفناء». ومثل «اقتتل الناس قتالاً لم يسمع بمثله أحد أو عرفه». وسوى ذلك من التعابير التي تبرز مدى ما كان عليه القتال من الشراسة والضـراوة، حيث يحاول كل طرف انتزاع النصر مهما بلغ الثمن، ومهما تطلب ذلك النصر من التضحيات. على أنه كان بالمستطاع في كثير من الأحيان تجنب المعركة التصادمية، نظراً لما تتضمنه من المجازفات والمخاطرات والنتائج غير المضمونه. والاستعاضة عنها بتوجيه الضربات الى المناطق الأضعف والأقل مقاومة. ومثال ما كان يفعله الطرفان عند علمهما بحشد قواتها في منطقة معينة، فيتم توجيه الضربات العنيفة الى مناطق بعيدة جداً عن مناطق الحشد. وقد حدث في مرات كثيرة أن وجه المسلمون ضرباتهم الى مناطق الجليل، أو بلاد الساحل، عندما تكون قوات الفرنج محتشدة في الشمال. أو توجيه الضربات الى الشمال عندما تكون قوات الفرنج محتشدة في الجنوب. وقد فعل الفرنج مثل ذلك. حيث كانوا يركزون ضرباتهم على مناطق الفراغ، أو مناطق الضعف، بحيث يحققون أكبر قدر من المكاسب المادية والمعنوية، بثمن مقبول أو محتمل. حتى إذا ما توافرت لهم المعلومات عن تحرك جيوش كبيرة من المسلمين لقتالهم. انسحبوا سراعاً وعادوا الى قواعدهم ـ مدنهم واماراتهم ـ مكتفين بما حققوه من نصر، وما حصلوا عليه من الغنائم.

أدرك المسلمون منذ البداية أن الإمارات التي أقامها الفرنج على أرض بلاد الشام، تشكل مع مملكة القدس جبهة واحدة، وأن هذه الامارات، مع مملكتها، ما هي إلا قواعد للعدوان والتوسع. ولهذا فقد تركز الجهد الأساسي للمسلمين لحصر هذه (الممتلكات) التي سيطر عليها الفرنج، ضمن حدودها، وبذلوا كل ما في وسعهم لاستنزافها وعدم السماح لها بالتوسع. ولهذا كانت أي ضربة على أي إمارة تحقق

الهدف، بشرط أن تستنزف هذه الضربات من جهد الفرنج وقدراتهم بأكثر ما تلحق الضرر بالمسلمين. ولذا كان تجنب المعركة الحاسمة - التصادمية - من مصلحتهم. وكان الفرنج بدورهم يريدون المحافظة على قواعدهم التي استولوا عليها، ومن ثم متابعة التوسع. فكانت ضرباتهم في مناطق الفراغ - أو النقاط الضعيفة، وتجنب المعركة التصادمية، هو في مصلحتهم. ولـذا تميز الصراع بالمسيرات الطويلة والهجمات العنيفة، والانسحاب السريع. وكان كل طرف يحقق كسباً في منطقة من المناطق، أو في إمارة من الامارات، ليخسر - عـن طيبة خاطر - في مناطق أخرى. ولهذا تداخلت الحدود - كتداخل أسنان المشط - وبرزت القلاع والحصون على خطوط غير منتظمة. إلا أنها ذات أهمية طبوغرافية - جيواستراتيجية حاسمة.

لقد ظهرت للمسلمين فائدة التعامل مع جبهة الفرنج على أنها جبهة واحدة في مناسبات كثيرة، كان أولها وأوضحها عندما توجهت قوات المسلمين الى مصر. ففي المرات الثلاث - أو الحملات الثلاث - واجه أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي - ثقل قوات الفرنج المتفوقة على أرض مصر. فما كان من نور الدين زنكي إلا أن قام بهجمات ضخمة هدد فيها امارات الفرنج ومملكتهم في القدس تهديداً خطيراً مما أرغمهم على الانسحاب من مصر وتخفيف الضغط عن قوات المسلمين فيها. وحدث مثل ذلك أيضاً أثناء حملة ملـك فـرنسـا - لـويس التـاسـع - على دميـاط والمنصورة. وتكررت هذه الظاهرة. مما أرغم الفرنج على الاحتفاظ بقوات كافية في قلاعهم وحصونهم ومدنهم، للدفاع عنها وحمايتها، الأمر الذي أدى بالتالي إلى حرمان الفرنج من قدرتهم الحركية، ووضع حداً لحرية عملهم العسكري، وبهذا صار باستطاعة المسلمين حشد أكبر قدر من قواتهم للاستيلاء على الهدف الذي يريدون، وإعادة فتح القلعة والحصن الذي يرغبون ويصممون. وتحولت بذلك كافة مراكز الفرنج القوية إلى نقاط ضعيفة، مما ساعد على إعادة فتحها وطرد الفرنج منها.

يظهر ذلك بوضوح مدى التطور الكبير، والتعقيد الشديد الذي بلغه فن الحرب الإسلامي، أيام الحروب الصليبية. ولم يكن هذا التطور وذاك التعقيد مقتصراً على المفاهيم أو الأسس الاستراتيجية، وإدارة الحرب، وإنما كان شاملاً

لفن العمليات وحتى المستوى التعبوي ـ أو التكتيكي ـ. ولئن كان الفضل في هذا التكامل يعود الى المذهب العسكري الإسلامي الذي تحددت معالمه منذ الأيام الأولى لفتوح العرب المسلمين، فان الفضل في تطوره وارتقائه إنما يعود لقادة الحرب الكبار الذين أنجبتهم الأمة الإسلامية من بين صفوف الزنكيين والأيوبيين والمماليك، وذلك دونما انتقاص لجهود الحشود الماثلة من جند الله، المجاهدين في سبيله، والذين كان لتضحياتهم وصدق جهدهم وجهادهم ما ساعد على هذا التطور.

اضطلعت البحرية الإسلامية التي اتخذت من الموانيء المصرية قواعد لها، بدور كبير في الصراع ضد الفرنج الصليبيين. وكان من أهم الواجبات التي نفذتها:

١ ـ نقل القوات والامدادات للمدن الإسلامية الساحلية عند تعرضها للحصار.

٢ ـ احكام الحصار على مدن الفرنج الساحلية بالتعاون مع القوات البرية.

٣ ـ مهاجمة أساطيل الفرنج وقواعدهم في قبرص وعلى سواحل بلاد الشام.

٤ ـ التعرض لاساطيل الفرنج وسفنهم التجارية وقوافل امداداتهم البحرية.

٥ ـ مطاردة قوات الفرنج في البحر الأحمر ـ مثل مطاردتها لقوات رينالد شاتيون الذي حاول غزو الحجاز ـ.

٦ ـ التعاون مع القوات البرية في عمليات خاصة (مثل حصار القوات الفرنسية في دمياط).

ومن الواضح أن هذه الواجبات مماثلة لواجبات القوات البرية. ومتكاملة معها. فهي بذلك النموذج البسيط لما هي واجبات القوات في الأزمنة الحديثة، مما يؤكد مرة أخرى التطور الكبير الذي بلغه فن الحرب الإسلامي أيام الحروب الصليبية. ولقد تميزت الأعمال البحرية الإسلامية بالروح الهجومية، مثلها كمثل الأعمال البرية. كما اشتركت مع القوات البرية. بميزة امتلاك القدرة الحركية العالية واستخدام هذه القدرة في القتال لتحقيق هدف الحرب. ولقد برزت في هذا المضمار أسماء عدد من أمراء البحر، لعل أوفرهم خطأ هو (حسام الدين لؤلؤ) الذي اقترن اسمه بالأعمال القتالية الكبرى في أيام صلاح الدين الأيوبي، والذي أمكن له تحقيق انتصارات حاسمة

على القوات البحرية للفرنج. ولقد تعرضت البحرية الإسلامية لكوارث ونكبات بغير أنها كانت قادرة باستمرار على استعادة قدرتها وامكاناتها بسرعة، واستئناف دورها في حمل راية الجهاد في سبيل الله، حيثما تستطيع أن تحملها مياه البحار.

لقد كان من أهم الشروط الواجب توافرها في مثل هذه الحرب المعقدة. على مستوى ادارة الحرب، هو تأمين شبكة دقيقة من الاتصالات لتأمين تنسيق التعاون بين القوات البرية المنتشرة على مساحات واسعة، وللحصول على المعلومات وارسال الأوامر بسرعة، وتنظيم التعاون بين القوات البرية والقوات البحرية. ولقد أظهر نور الدين محمود - زنكي - اهتماماً كبيراً في تنظيم شبكة الحمام الزاجل (الهوادي). مع تنظيم شبكة السعاة في كافة البلاد. فبات باستطاعة القائد الحصول على المعلومات واتخاذ القرارات وتنفيذها في الوقت المناسب. ولقد ظهرت فائدة هذا التنظيم في مناسبات كثيرة حيث كانت القوات البرية والقوات البحرية تعمل بتنسيق تام وتعاون مطلق، رغم تباعد المسافات، ورغم اختلاف القيادات وتباين أساليب عمل قواتها. ويعتبر ذلك برهاناً غير مباشر لما كانت عليه القيادات من التفاهم والانسجام والاخلاص في العمل.

لم يكن ذلك الانسجام والتعاون ليتحقق على كل حال، لو لم تتوافر للقوات الإسلامية فضيلة (الاستعداد الدائم للقتال) إذ كثيراً ما كان الفرنج يقررون القيام بهجوم كبير في الوقت الذي يكون فيه القائد الأعلى (السلطان أو الملك) قد حرف جيوشه إلى بلادها بعد موسم قتالي صعب وبعد غربة طويلة عن الأهل والأوطان واستعداداً لموسم القتال التالي وعندها يضطر القائد الأعلى لاستدعاء جيوش المدن والأقاليم على عجل، فتتقدم هذه الجيوش سراعاً لتصل في الزمان المحدد الى المكان المعين كمنطقة حشد، لتبدأ دورة قتالية جديدة. وكثيراً ما حدث أيضاً أن وصلت قوات دعم كبيرة للفرنج التي لم تكن تنتظر طويلاً على الساحل لتبادر بالهجوم. وفي أحيان أخرى كانت جيوش المسلمين، تصاب بانتكاسة، أو تجد نفسها أمام موقف يتطلب إجراء حشد أكبر للقوى. مما يتطلب بالضرورة استنفار جيوش المسلمين التي برهنت الأحداث أنها كانت على استعداد دائم للقتال ولتلبية كل نداء إلى حيث يتطلب

الموقف. ولعل الظاهرة المثيرة في ذلك كله هو أن استدعاء الجيوش العاجل، كان يأتي غالباً في أعقاب حدث هام، أو مذبحة يتعرض لها المسلمون، وكان من طبيعة الأمور ـ وفي ذاك العصر خاصة بحسب الشواهد التاريخية المتوافرة، ومنها تجارب الحروب الصليبية ذاتها ـ أن تظهر الجيوش نوعاً من التقاعس أو التكاسل، في حين كان موقف الجيوش الإسلامية مناقضاً، إذ كانت النكبات والكوارث تزيد من مشاعر الغضب، وتحفز على المزيد من خوض غمار القتال. وقد يكون من الصعب تفسير هذه الظاهرة بغير إرجاعها إلى موقعها من فن الحرب الإسلامي المستند في مرتكزاته وقواعده إلى الدين الإسلامي.

وكما كان دور الدين الإسلامي، ومذهبه العسكري، أساسياً وحاسماً في الاعداد القتالي للقوات، فقد كان دوره مماثلاً في تنظيم العلاقة بين قادة المسلمين وقواتهم؛ ولقد كان أمراء الزنكيين والأيوبيين والمماليك، نسيجاً واحداً رغم تباين قبائلهم واختلاف شعوبهم وتباعد مواطنهم وظروف نشوئهم وبروزهم على سطح الأحداث. فقد كانوا جميعاً نماذج رائعة في التجرد والاخلاص والتضحية وسواها من الفضائل القيادية والفضائل الحربية، إنها لا تختلف أبداً عن نماذج السلف الصالح من أمثال خالد ابن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص والقعقاع بن عمرو التميمي وسواهم ممن لا يطالهم حصر. ولا يجمعهم إحصاء. فكانت علاقتهم بجندهم قائمة على العمل المشترك للهدف الواحد، ولهذا لم تكن هذه العلاقة هي علاقة مصلحة ـ ولو أنه كان من مصلحة الأمراء وجندهم إقامة مثل هذه العلاقة والمحافظة عليها ـ بل كانت علاقة نبيلة لارتباطها بالهدف النبيل للحرب ذاتها. وهو الهدف الذي كان يضمن التلاحم بين جماهير المسلمين وبين جندهم وقيادتهم التي تمثل القيادة السياسية والقيادة العسكرية ـ بمفهوم الأزمنة الحديثة ـ. وكان دور القيادة أيضاً هو تنسيق الجهد العسكري مع جهد القاعدة الواسعة لجماهير المسلمين.

ما من حاجة للحديث عن مكان القائد في المعركة أيام الحروب الصليبية، إذ أن مكانه بقي ثابتاً ولم يتغير. فهو مع المقدمة والطلائع في التقدم، وهو مع المؤخرة ـ الساقة ـ أثناء التراجع والانسحاب. وهو في القلب عند اتخاذ النظام القتالي

(الصف). وهو مع أحد الجناحين بحسب ما يتطلبه الموقف، إنه دائماً يستأثر بمواطن الخطر، ولم يكن ذاك حباً بالخطر والمجازفة، وإنما لاتخاذ القرار المناسب وتنفيذه مباشرة، في أشد مواطن الخطر الحاحاً، ولطالما أشفق أمراء المسلمين، وشيوخهم، على قائدهم الأعلى من استئثاره بمواطن الخطر، ولطالما التمسوا منه الاشفاق على المسلمين من مكروه ينزل بهم، إن أصابه مكروه. وغريب ما في الأمر أن الاجابة التي جاءت على لسان ذاك النفر من القادة الكبار:

«ومن أنا حتى يقال هذا، الله الذي حفظ الإسلام وأهله، هو الذي يتكفل بهم».

وكما كان موقعه في الحرب، كان موقفه أيضاً في الادارة والحكم، حيث كانت ممارسة هذه الادارة التنقل باستمرار، بين عاصمة وأخرى، وقرية وأخرى، لحث المسلمين على الجهاد، وتعبئة قواهم. والنظر في أمورهم، ومعالجة مشكلاتهم، وتأمين متطلباتهم على أسس الحق والعدالة وقواعد الشرع الإسلامي، مستعيناً في سلمه وحربه بكبار رجال الدين والفقهاء المخلصين والعلماء الصالحين.

لقد جاء الفرنج الصليبيين الى بلاد الشام، وظهروا على أنهم قوة مجهولة المعالم، مجهولة القوة، مجهولة الهدف، وتعامل المسلمون مع مجموعة من القوى المجهولة، فكانت معاركهم الأولى، رغم ما ظهر فيها من البطولات، ورغم ما تميزت به من المهارات والكفاءات القيادية إلا أنها كانت معارك استطلاع بالقوة - إذا ما جاز التعبير - هدفها التعرف على هذا المجهول، وتحديد النهج الأمثل للتعامل معه، فكانت تلك المعارك برهاناً على تفوق المسلمين في فن العمليات، وفي الأساليب التعبوية - التكتيكية - ثم أخذت ملامح الصراع أشكالها الواضحة على مستوى السياسة - الاستراتيجية. وكان الفضل في ذلك لجماهير المسلمين وقياداتهم على السواء. حيث كانت عيون المسلمين ترصد بدقة أعمال العدو، وتنظيماته، وقواته، ومواطن ضعفه وقوته. ثم تتناقل هذه المعرفة في وسط الجماهير وقياداتهم، مما أسهم في صياغة المفاهيم المشتركة للصراع، غير أن ذلك لا ينتقص من دور القيادات الإسلامية في تنظيم

شبكات العيون ـ الجاسوسية ـ التي كانت ترفد الامراء بفيض من المعلومات الدقيقة والتي كانت في كثير من الأحيان تستخلص من قلب مراكز القوى المعادية، ومن مقر قياداتهم. وكانت هذه المعرفة ـ للعدو ـ هي أساس كل تطور أحرزته المعركة الإسلامية، وهي أساس الارتقاء بفن الحرب الإسلامي الى المرتبة التي بلغها، والتي أرسلت بظلالها إلى الأزمنة الحديثة. فلا غرابة بعد هذا إن أصبحت معارك الحروب الصليبية موضع أبحاث كثيرة ـ معاصرة ـ. حيث يكتشف الباحثون في كل يوم آفاقاً جديدة لم يسبق ارتيادها، أو يخرجون بنتائج ودروس مستخلصة تغاير أو تتكامل مع ما سبقها من العبر والدروس.

لا - التجربة التاريخية للحروب الصليبية .

ومضت أزمنة ودهور، والجدل مستمر بشأن المعركة الإسلامية أيام الحروب الصليبية. وكثيراً ما يتركز الجدل على (فن الحرب) و (إدارة الحرب) و (فن العمليات) و (الأساليب التعبوية - التكتيكية). وما كان يقابلها لدى الفرنج. وقد يكون من طبيعة الأمور أن تتباين وجهات النظر، وأن تختلف الآراء. فهل كان انتصار المسلمين على الفرنج هو انتصار للهجوم على الدفاع؟ وهل كان انتصار المسلمين هو تأكيد على انعدام دور القلاع والتحصينات ونذيراً بزوال أهميتها؟ وهل انتصر المسلمون بفضل وحدتهم السياسية (الدينية) بينما كان ضعف هذه الوحدة في القيادة السياسية للفرنج هو سبب فشلهم وهل كان ما توافر للجيوش الإسلامية من قيادات تميزت بكفاءتها القيادية العالية هو العامل فيما أحرزه المسلمون من انتصارات؟ وهل كان اختلاف الطبيعة الجغرافية - الطبوغرافية - بين مسرح العمليات الأوروبي، ومسرح العمليات في بلاد الشام، هو السبب فيما أحرزه المسلمون من انتصارات على الفرنج انتهت بالنصر الكبير في طرد الفرنج من بلاد الشام؟ هذه التساؤلات، وأمثالها، كثير - لا يدخل تحت حصر - هي بعض ما تضمنته أبحاث الغربيين. وفي الحقيقة فان استعراضها يظهر أنها جميعها جزئيات في مسألة أشد عمقاً، وأكثر اتساعاً. وهذه المسألة تكمن في (مفهوم الحرب ذاتها) وفي (عدالة قضيتها). غير أنه قد يكون من المناسب التعرض لبعض ما جاء فيها. وأولها على سبيل المثال: العلاقة بين الهجوم والدفاع، وأي من الاثنين هو الشكل الأقوى في الحرب؟ لقد جاء الفرنج من كل أرجاء الغرب، واجتاحوا بلاد الشام من أقصاها إلى أقصاها، فهل كانت مسيرتهم الطويلة واجتياحهم لبلاد الشام هو عملية دفاعية؟ من الصعب القبول بهذه المقولة، واعتبار أن التزام الفرنج بالدفاع هو الذي جعلهم يخسرون معاركهم وحروبهم، إذ أن الفرنج استمروا في ممارسة الأعمال الهجومية حتى المرحلة الأخيرة من وجودهم على أرض الشام. ولقد كانت

هجماتهم المتتالية على مصر، ثم هجماتهم السنوية ـ الدورية ـ على بلاد المسلمين في الشام، إنما هو برهان ثابت على امتلاكهم للقدرة الحركية العالية، واستخدام هذه كثير لا يدخل تحت مصر هي بعض ما تضمنته أي رد الغربيين. وفي الحقيقة فإن اشواطها يظهر أنها جميعها جزئيات في مسألة أشد عمقاً، وأكثر اتساعاً. وهذه المسألة القدرة في الأعمال الهجومية. ولكن المسلمين تفوقوا على الفرنج في مجال السياسة الاستراتيجية كما تفوقوا عليهم في فن العمليات، فحرموهم من حرية عملهم العسكري، واستنزفوا قدرتهم، فأمكن لهم الانتصار عليهم. أما الاعتماد على قصة القلاع والتحصينات التي استخدمها الفرنج في بلاد الشام، وأقاموا فيها، واعتبارها شاهداً على نهج الفرنج الدفاعي، فهي قصة تفتقر للدقة والواقعية، إذ برهن عرض الأحداث أن هذه القلاع والتحصينات ما كانت ـ بالنسبة للفرنج ـ إلا القواعد المتقدمة للعدوان والتوسع على حساب بلاد المسلمين. أما عن قصة نجاح المسلمين في إعادة فتح القلاع والحصون ـ دفعة واحدة ـ فهي ليست قصة انتصار الهجوم على الدفاع ـ ولو أن الهجوم هو الذي ينتصر عادة على الدفاع ـ بقدر ما هي انتصار التفوق الاستراتيجي، على الضعف الاستراتيجي. إذ أصبح باستطاعة المسلمين وقد امتلكوا هذا التفوق، أن يحشدوا القوى والوسائط الكافية، وأن يعيدوا فتح القلاع والحصون بعد حرمانها من كل امكانات الدعم الخارجي.

وهنا لا بد من القول أيضاً أن المسلمين قد أظهروا تفوقاً واضحاً في التعامل مع القلاع والحصون، وفي استخدام وسائل الحصار (المنجنيقات والأبراج وسواها) وفي أعمال النقب والتفجير. ولكن ذلك كله لم يكن ليضمن تحقيق مثل تلك الانتصارات الرائعة، بمثل تلك التضحيات البسيطة نسبياً ـ أو المقبولة ـ. لو لم يمتلك المسلمون ميزة التفوق الاستراتيجي ـ على نحو ما سبق ذكره ـ. أما عن القلاع ودورها التاريخي في الدفاع، فهو أمر لا يقبل الجدل أو المناقشة، فالمعروف أن الدفاع والهجوم هما مرحلتان متكاملتان، لا غنى لأحداهما عن الأخرى، وقد كان دور القلاع والتحصينات في الماضي مماثلاً تماماً لما هو عليه دور التحصينات الدفاعية في الأزمنة الحديثة، وقد عرف المسلمون ذلك وأتقنوه، كما عرفه الفرنج أيضاً واستخدموه، بدلالة إقامة القلاع والحصون في مناطق الحدود بين دول أوروبا، لاسيما في الفترة التي

أعقبت الحروب الصليبية، حيث أخذ الأوروبيون عن المسلمين كثيراً من فن بناء القلاع وتحصينها وتزيينها واستمر ذلك حتى استخدام البارود في المدفعية فانتقلت القلاع والتحصينات من الذرى والقمم لتأخذ مكانها في باطن الأرض. وجاءت النار النووية لتزيد من عمق هذه التحصينات بعيداً عن ظاهر الأرض.

يمكن الانتقال بعدئـذ إلى مـا قيـل عـن تفـوق المسلمين في وحـدتهم السيـاسيـة ـ الدينية ـ رغم ما وقع بين ملوك المسلمين وامرائهم من صراعات وصلت في مرات كثيرة الى الحرب. فتلك حقيقة لا تقبل الجدل، إلا أنه لا بد من التوقف مرة أخرى عند بعض ظواهر هذه الوحدة وعوامل تمزقها.

لقد كانت الوحدة بين أقطار العالم الإسلامي هي الحالة الطبيعية التي فرضها الإسلام في تنظيم المجتمع الإسلامي، غير أن هذه الوحدة كانت تتعرض بصورة استثنائية للتمزق ـ لعامل شخصي أو مصلحي عارض ـ فكان يتم قتال الفئة الباغية إلى أن تفيء إلى أمر الله ـ القاضي بالطاعة والجماعة، وتبعاً لذلك كان هذا الذي يخرج عن الجماعة، أو ذاك الذي يقاتل لوحدة الجماعة يحتكمون الى المسلمين، وكانت موازين هذا الاحتكام هي العمل لخير الإسلام والمسلمين. فكان المتخاصمون كل يبذل جهداً أكبر لما فيه هذا الخير، ولما تقتضيه مصلحة المسلمين ومن هنا كانت الخصومات والمنافسات سرعان ما تنجلي عن وحدة اتفاق، نظراً لوحدة الهدف. وقد حدث كثيراً أن استعان بعض أمراء المسلمين بالفرنج، واستنصروا بهم على اخوانهم المسلمين، ثم لم يلبثوا أن سارعوا للندم والتوبة، فأعادوا تقويم مواقفهم، وارتضوا بحكم الطاعة والجماعة. وقد حدثت أمثولات مشابهة لدى الفرنج، كما كان موقف كونت طرابلس ـ ريموند ـ قبل معركة حطين، غير أنها كانت حالة استثنائية بينما كان النقيض هو الحالة الاستثنائية عند المسلمين الذين كانت الطاعة والجماعة هي أساس تنظيم مجتمعهم وحياتهم.

وقد يكون من طبيعة الأمور في مجتمع هذه سماته، وهذه فضائله، وقد جابه التحديات الثقيلة، أن ينجب أجيالاً من القادة الذين توافرت لهم كفاءة قيادية عالية ـ على مختلف المستويات القيادية ـ مثل ذلك كمثل ما حدث في عهد النبوة، عندما

أنجب المجتمع العربي الإسلامي أجيالاً من القادة، لم تعرف الدنيا نظيراً لهم ولا مثيلاً في تجردهم واخلاصهم وكفاءتهم. وتقود هذه المقارنة الى حقيقة ثابتة ومعروفة - بالنسبة للمسلمين على الأقل - وهي أن الفضل في تكوين مثل هذه الفئة القيادية، إنما يعود الى مدرسة الإسلام الدينية، التي صاغت للمسلمين مذهبهم العسكري، وحددت لهم نهجهم الواضح في أمور سلمهم وحربهم.

لقد زعم الباحثون والمؤرخون الغربيون - فيما زعموه - أن فشل الحروب الصليبية، إنما يعود في قسم كبير منه لاختلاف الطبيعة الجغرافية والطبوغرافية، حيث كانت السهول الفسيحة، والصحارى الممتدة، تسمح للمسلمين باظهار تفوقهم في حرب الحركة. بينما اعتاد المقاتل الصليبي على إظهار تفوقه في المناطق الجبلية ومناطق الغابات التي تسمح بالاختفاء والتمويه وتنظيم الدفاع، وتحقيق الهجوم المباغت. وقد لا تكون هناك حاجة للرد على مثل هذه المزاعم. فلقد خاض العرب المسلمون حروبهم، وانطلقوا من صحراء الجزيرة إلى رحاب الدنيا التي ضمت السهول والجبال، المناطق الحارة والمناطق الباردة، الغابات والمناطق الجرداء، واستطاعوا التعامل مع البيئات الطبوغرافية المختلفة والأجواء المناخية المتباينة، فسارت جيوشهم عبر الصحارى المقفرة الى الغابات المكتظة ومن السهول الرحبة الى الجبال الوعرة. وقد جاء الخلف من المسلمين فساروا على هدى أسلافهم، ولم تشكل لا الموانع الطبيعية ولا الظروف الجوية عوائق أمام مسيرتهم الظافرة. ومقابل ذلك، فقد جاء الفرنج الى بلاد الشام، واجتاحوها وأقاموا إماراتهم على أرضها، وبذلك أكدوا أن الأحوال الجوية واختلاف الطبيعة الجغرافية، لم تشكل عائقاً أمامهم. واستقر الفرنج في بلاد الشام زهاء مئتي عام. وتوالدت أجيال منهم على أرض بلاد الشام، فصاروا من حيث التكيف مع المناخ والتكيف مع الطبيعة الجيواستراتيجية مثلهم كمثل المسلمين سواء بسواء. وبالاضافة إلى ذلك، فان الامارات التي أقاموا حكمهم فيها: (الرهاء، انطاكية، طرابلس، صيدا، القدس) تشابه في كثير من ملامحها بعض أقاليم أوروبا، بجبالها وغاباتها، بأمطارها واعتدال مناخها، بأنهارها ومياهها. ولا ريب أن العامل الجغرافي، وعامل المناخ، من العوامل التي تلقي بثقلها في تحديد مجريات الأعمال القتالية، لاسيما في الأزمنة الغابرة، غير أنها هنا لم تكن ذات ثقل كبير، وإذا كان لها شيء من الثقل، فهو ثقل يقع على

عاتق الأطراف المتحاربة جميعها، وليس على عاتق طرف دون الآخرين.

يمكن بعد ذلك تجاوز كل ما يحتمل قوله من الحجج والذرائع لتعليل فشل الحملات الصليبية القديمة، من وجهة نظر الغربيين، ذلك أن تلك الحجج والذرائع جميعها تتجاوز حقيقة أساسية وثابتة، وهي أن الإسلام وجنده كانوا أقوى من الفرنج في عقيدتهم الدينية، وفي مذهبهم العسكري، وهذا هو سبب انتصارهم. وأما ما قيل بعدئذ من الحجج، وما يحتمل أيضاً قوله، فهو ليس إلا تمسك بالظواهر، وإلا إمعاناً في التضليل والخداع - خداع الآخرين وليس خداع الذات - إذ أن أصحاب تلك التفاسير يعرفون يقيناً السبب الحقيقي لانتصار الإسلام وأهله.

لقد زعم كثير من المؤرخين والباحثين الغربيين أنهم لم يجدوا في المذهب العسكري الإسلامي، وفي فن الحرب الإسلامي ما يمكن تعلمه، بينما وجدوا في كثير من العلوم والفنون والآداب ما يمكن تعلمه. وقد يكون ذلك صحيحاً في مجال فن الحرب، إذ أن التعلم يتطلب استعداداً مسبقاً للتعلم، كما يتطلب تطوراً فكرياً مناسباً. ويظهر أن الفرنج في تلك الحقبة كانوا يفتقرون لمثل ذاك الاستعداد، فاستعصى عليهم اكتساب العلم والمعرفة، واكتفوا باكتساب الظواهر فقط، وقد جاءت تفسيراتهم وتعليلاتهم بعدئذ موجهة لهذه الظواهر. فماذا يتعلمون من المسلمين وهم الذين جاؤوا لمحاربتهم؟ - عقيدتهم الدينية ومذهبهم العسكري المستند إليها؟ أم فضائل المسلمين الحربية والمستندة الى شريعة الله؟ أم مؤهلات القيادة الإسلامية والتي حدد الإسلام قواعدها ومرتكزاتها؟. وإذن فقد كان إعراض الفرنج عن التعلم ليس جهلاً أو تجاهلاً، وإنما كان إمعاناً في الضلال وإيغالاً في الجحود والانكار. ولم يكن باستطاعة المسلمين بداهة فرض علومهم العسكرية وفق الحرب المتوافر لهم على الفرنج، وهم على مثل هذه الحالة من التعصب الأعمى والانغلاق الفكري.

قام الفرنج الصليبيون بعد أن تم طردهم من بلاد الشام بتنظيم حملة صليبية جديدة، انطلقت من قبرص، وهاجمت الاسكندرية (سنة ٧٦٧ هـ = ١٣٦٥ م) ونهبتها ودمرتها. وقد جاء في تاريخ الحروب الصليبية (٣/٧٤٦) ما يلي:

«احتفل الصليبيون بانتصارهم، بما ارتكبوه من وحشية لا مثيل لها، وما وقع

من الحرب المقدسة التي استمرت نحو مئتي وخمسين عاماً، لم تعلم الصليبيين شيئاً عن الانسانية. فما أجروه من المذابح لم يضارعها سوى تلك التي حدثت في القدس سنة ١٠٩٩ م. وفي القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م) ولم يبلغ المسلمون هذه القسوة والوحشية عند استيلائهم على أنطاكية أو عكا».

والمعروف أيضاً أن الصليبيين لم يتوقفوا عن الكيد للإسلام والمسلمين، بما عمر قلوبهم من الحقد الأسود والكراهية البغيضة ضد الإسلام وأهله. ووقع على عاتق الاتراك العثمانيين عبء مواجهة الحملات الصليبية ونقلها إلى أوروبا. وكان منها الحملة الشهيرة باسم حملة نيقوبوليس (سنة ٧٩٩ هـ = ١٣٩٦ م). والتي جاء في المصدر السابق ذاته (٣/٧٦٤) بصددها ما يلي: «وصلت الجيوش الغربية الى بودا ـ بست، وقد ضمت ما زاد على مئة ألف عسكري... ولم يكن السلطان العثماني بايزيد من جانبه متواكلاً، فعندما بلغته الانباء بأن الحملة الصليبية احتشدت في بلاد المجر، كان يحاصر القسطنطينية، فبادر بايزيد على الفور الى استدعاء كل من في متناول يده من العساكر، وتوجه بهم صوب الشمال، الى نهر الدانوب. وجرى تقدير عدد جيشه بما يزيد على مائة ألف رجل.

على أن فرسان الغرب لم يتعلموا شيئاً من تجربة استمرت ثلاثة قرون، فحينما جرت مناقشة خطة الحملة في ـ بودا ـ نصح ملك المجر سيجسموند ـ باتخاذ خطة الدفاع إذ كان يعلم ما عليه قوة خصمه. فاعتقد أنه لمن الخير أن يستدرجوا الأتراك إلى داخل بلاد المجر، ثم يهاجمونهم من مواقع سبق إعدادها وتجهيزها... غير أن حلفاءه كانوا كالمحاربين الصليبيين الأوائل يرون اتخاذ خطة هجوم كبير، فيتغلبون على الأتراك، وتتقدم الجيوش المسيحية منتصرة في الأناضول، الى بلاد الشام، والى القدس ذاتها. وكان العساكر من العنف ما حمل سيجسموند على الاذعان».

والمعروف أن هذه الحملة الضخمة التي اعتبرت أضخم حملة حشدها الغرب للقضاء على المسلمين، قد تحطمت وتمزقت عندما وصلت الى نيقوبوليس واصطدمت بقوات الاتراك المسلمين، الذين نظمهم السلطان بايزيد تنظيماً رائعاً، بذات الطريقة التي جرت عليها احداث معارك المسلمين في حطين وعين جالوت وسواها.

هكذا لم يتعلم الفرنـج الصليبيين شيئـاً لا مـن فضـائـل المسلمين، ولا مـن طرائقهم القتالية. وأساليبهم التعبوية - التكتيكية -. وقد يكون من غير المهم أن يتعلم الفرنج الصليبيون شيئاً من المسلمين، بل لعله من الخير للمسلمين ألا يتعلموا، ولكن ما بال المسلمين يهجرون تجربتهم الذاتية، وما ضمته من دروس وعظات لازالت تحتفظ بكل فائدتها وقيمتها وأهميتها؟ أم تراهم صرفوا عنها - بتخطيط اعدائهم وتنفيذه - فانصرفوا طائعين مختارين للأخذ بما يضرهم ولا ما ينفعهم بشأنهم في هـذا كمثـل شـأنهم في سـائـر أمـور دينهـم ودنياهم؟.

وتبقى التجربة التاريخية للحروب الصليبية، محتفظة بالكثير الكثير من قيمتها وفائدتها، لا بالنسبة لفن الحرب فقط، وإنما أيضاً بما رافق هذه الحرب من تطورات على مستوى السياسـة الاستراتيجيـة، وعلى مستـوى اقتصـاد الحرب، وعلى المستـوى الاجتماعي، وحتى على المستوى السكاني - الديموغرافي -.

لقد تميزت الحروب الحديثة بتعقيدها الكبير، على كافة الصعد والمستويات، بداية من إدارة الحرب ونهايـة بتنفيـذ أعمالها القتـاليـة على مستـوى الوحـدات الصغـرى. واختلطت فيها أعمال الهجوم بالتنظيم الدفاعي، واشتبكت فيها عمليات القوات النظامية بعمليات الانصار والعصابات (الحروب الثورية). وقد أظهر عرض الأعمال القتالية في الحروب الصليبية القديمة أنها كانت على مثل هذا المستوى من التعقيد. وليست هذه هي الصلة أو الرابطة الوحيدة التي تصل تجربة الماضي بحروب الأزمنة الحديثة، بل هناك الكثير من الظـواهـر المشتركـة: وهـل هنـاك ثمة اختلاف كبير بين تـوصيـة - ريتشارد قلب الأسد. بتـوجيـه الحملات الصليبيـة الى مصر لعـزلها عـن عـالمهـا الإسلامي. وبين المحاولات الحديثة للحملات الصليبية الراهنة لعزل مصر عن عالمها العربي - الإسلامي؟. وهل تختلف المحاولات الصليبية القديمة عن الحملة الحديثة من حيث إصرارها على الاحتفاظ بالقدس وإبقائها تحت حكم أعداء الإسلام والمسلمين؟.

ثم هل يختلف تعاون المغول - التتار مع الفرنج في الأزمنة القديمة، رغم ما بين المعسكرين المتناقضين، عن تعاون مراكز القوى المعادية للإسلام وأهله في الأزمنة الحديثة؟

٨ ـ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب.

ما أشد ضراوة تلك الحروب والحملات الصليبية التي شنها الغرب على الإسلام والمسلمين. فبينما كان المسلمون على أرض الأندلس يخوضون حرباً لا هوادة فيها، كان إخوانهم في المغرب العربي ـ الإسلامي وفي جزائر البحر الأبيض المتوسط ـ ينازعون الفرنج الصليبيين ويقاتلوهم على كل شبر، فيما كان المسلمون في بلاد الشام يجابهون الفرنج الذين جاؤوا من كل فجّ عميق، وكلهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم. ونهض المسلمون في كل مكان، وقد عرفوا أن الله متم نوره ولو كره الكافرون. وما كان عليهم إلا أن ينصروا الله حتى يتم الله وعده وينصر عباده. وصدق المسلمون ما عاهدوا الله عليه، فصدقهم الله وعده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده.

لقد تداعت الدنيا على المسلمين، وضاقت على المسلمين بما رحبت، وفي وسط ظلمة الليل القاتمة، حيث زلزلت الأرض زلزالها، وأذهل الروع كل ذات حمل عن حملها، ما وهن المسلمون ولا ضعفوا، ما اهتز منهم اليقين، ولا ضاع منهم الحجى، ولا ذهب عنهم الادراك والوعي، وكان ذلك من أروع ما أبرزته التجربة التاريخية. للحروب الصليبية القديمة. فعندما وصلت حملة الفرنج الصليبيين الى دمياط، ظن الناس ـ من المسلمين وغير المسلمين ـ أن الدنيا قد مادت بهم أو كادت ـ ووصلت القلوب الى الحناجر، فماذا سيكون من أمر المسلمين وقد أوشك الفرنج على امتلاك مصر فيما كانت حشود المغول التتار تدق بعنف أبواب العراق بعد أن اجتاحت كل أقاليم المشرق العربي ـ الإسلامي.

وأشرقت ظلمة الليل بانتصار المسلمين في المنصورة. وانزاح الهم عن صدور المسلمين. ومرة أخرى. أدلهمت ظلمة الليل، فقد اجتاح المغول التتار عاصمة الإسلام

والمسلمين - بغداد -. وأزالوا الخلافة أساس وحدة الطاعة والجماعة - ومضوا في زحفهم الظافر فاجتاحوا بلاد الشام، ودقوا أبواب مصر بقوة وعنف. وكان أمراً غريباً أن يقدم المظفر قطوز على شنق رسل هولاكو الذين جاؤوا - وهم يتوقعون استلام وثيقة استسلام مصر. فأي قوة هذه التي اعتمدها قطوز وهو يرفض التحدي الذي فرضه عليه المغول التتار؟ إنها قوة الايمان، لا أكثر ولا أقل. وبروح الايمان هذه، قاد قطوز جيشه الى فلسطين، وتبددت الظلمة مرة أخرى، وأشرق الضوء الباهر من عين جالوت، فأعاد لدينا المسلمين بهجتها وصفاءها.

لم تكن الحملات الصليبية التي عرفها المسلمون في بلاد الشام إلا فصلاً محدداً من فصول الصراع المرير الذي خاضه المسلمون في تلك الحقبة التاريخية، فبينما كان المسلمون في الشام يمارسون تجاربهم القتالية مع الفرنج الصليبيين، كان إخوانهم في أقصى المشرق يمارسون تجارب مماثلة مع المغول التتار، ومع بلاد الهند، حيث استمر الصراع عشرات السنين، قبل أن يتمكن المغول من الوصول الى بلاد العراق والشام. ولم تكن فصول هذا الصراع أقل عنفاً ولا أقل إثارة من تلك التي عرفها الفرنج في بلاد الشام.

ومن الشمال، من أقصى الشمال، انحدر الكرج في حملات سنوية أو دورية منتظمة للاغارة على بلاد المسلمين في بلاد فارس، وفي أذربيجان، وفي أي بلاد تصله قواتهم، وكان على المسلمين هناك أن يخوضوا حرباً ضارية ضد الغزو والأعمال العدوانية المتكررة.

هكذا اشغل كل اقليم من أقاليم المسلمين بهمومه وبمتاعبه، وبمشكلاته، وحمل المسلمون السلاح في كل مكان، ضد من يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وبأيديهم وبسلاحهم وبكل ما يستطيعون حشده من أجهزة القتل والابادة.

وكأن ذلك كله لم يكن كافياً، وكأن كل مسلم يحتاج كل قوى الدنيا حتى تنال منه. وكأن كل مسلم حقاً أقوى من كل قوى الشر والعدوان - ولم يطاله إلا ما كتبه الله له. فانتصر في كل مكان، وكان كل نصر على أي جبهة من الجبهات هو انتصار

لكافة المسلمين في كل مكان، ولعل أكبر انتصار حققه المسلمون هو انتصارهم على أعداء الداخل، الذين شكلوا أعظم ابتلاء على أمة المسلمين، وشعوبها المختلفة.

كان الباطنية - أو الاسماعيلية - قد نشروا شبكاتهم المنظمة في جميع بلاد المسلمين، وأفادوا من انصراف المسلمين لقتال أعداء الخارج، ليشهروا سيوفهم في ظهور المسلمين. ونال المسلمين منهم بلاء عظيم، فقد وجهوا حقدهم الدفين ضد شيوخ الإسلام - السنة - وعلمائهم وامرائهم وقادتهم. وقتلوا خيار المسلمين غدراً. ولم يكن باستطاعة المسلمين تجاهل الخطر الداخلي، فوجهوا ما يستطيعونه من جهد للقضاء على أعداء الداخل. ولكن لم يكن لديهم لا القوى، ولا الظروف الزمنية، ولا الامكانات، لاستئصال شأفتهم وتدميرهم، فاستشاط شرهم وقويت شوكتهم، وعم بلاؤهم، وظن المسلمون أنه لا خلاص منهم، وأثناء ذلك كان هؤلاء يتعرضون لضغوط داخلية وخارجية، فهم مسلمون في اعتقادهم وهم حرب على المسلمين في واقعهم وحقيقتهم، وإذ هم وصلوا إلى ما يريدونه، وجدوا أنهم في ضلال بعيد، مما حمل زعيمهم على حمل طائفته للعودة للإسلام (سنة ٦٠٨ هـ = ١٢١١ م) وهو ما ورد في التاريخ بالنص التالي: «أظهر الإسماعيلية، ومقدمهم جلال الدين من سلالة حسن بن الصباح، الانتقال عن فعل المحرمات واستحلالها. وأمر بإقامة الصلوات، وشرائع الإسلام ببلادهم من خراسان والشام. وأرسل مقدمهم رسلاً إلى الخليفة وغيره من ملوك الإسلام يخبرهم بذلك، وأرسل والدته إلى الحج، فأكرمت ببغداد اكراماً عظيماً، وكذلك بطريق مكة». أما الضغوط الخارجية، فكانت الخضوع للطوائف الدينية للفرنج (الداوية والاسبتارية) ودفع الاتاوة والجزية لها. وعداء المغول التتار. وقد أدى ذلك في النهاية الى تدمير هذه الطائفة تدميراً مذهلاً على أيدي المغول - التتار، مما أرغمهم في النهاية على العمل تحت راية الإسلام والمسلمين. فكان شأنهم كشأن الطوائف الدينية التي أقامها ونظمها الفرنج للكيد للمسلمين. ثم ما لبثوا أن دمروها. ويعتبر ذلك بدوره تجربة تاريخية مثيرة. إذ أن قيام الكيانات المستقلة بقوة السلاح، والعنف، والتطرف، لن يحمل إلا على العنف المضاد والمزيد من التطرف. مما يؤدي بالتالي إلى تدمير أعداء الداخل الذين يريدون الخروج على الجماعة وقهرها بقوة الارهاب.

كيف استطاعت الأمة الإسلامية أن تنتصر على أعداء الداخل وأعداء الخارج؟

كيف استطاع المسلمون الانتصار على ذاتهم وعلى أعدائهم؟.

كيف استطاع المسلمون تجاوز نقاط ضعفهم، والافادة من مواقع قوتهم؟.

ذلك ليس سرهم، وإنما هو سر الإسلام العظيم، الذي انتصر به المسلمون على أنفسهم، وعلى أعدائهم، فنصرهم الله على ذواتهم وعلى أعدائهم.

لم يكن طريق الانتصار سهلاً، فكم كان حجم جيوش الاعداء التي حاولت تدمير الإسلام وأهله؟ قد يكون من المؤسف حقاً عدم توافر بيانات دقيقة عن عدد الجيوش أو الحملات الضخمة التي غزت بلاد الإسلام. ولكنها كانت بالتأكيد أكبر عدداً وأوفر عتاداً مما كان لدى المسلمين. ورغم ذلك فقد نجح المسلمون في القضاء على كل تهديد داخلي وخارجي.

لقد عرف كل مسلم، وكل بلد اسلامي، كبر أو صغر، أنه لا حصن له إلا بالإسلام، فتحصن به وامتنع. وحمل كل مسلم راية الجهاد في سبيل الله، فكان فرض الجهاد هو الذي حفظ للإسلام ولأهله وجودهم.

لقد عملت هذه الحروب والتحديات على تبديل البنية السكانية ـ الديموغرافية ـ للمسلمين في بلاد الشام. فعندما جاء الفرنج الى بلاد الشام. كانت كثير من امارات المدن بيد العرب المسلمين ـ من أمثال بنو عمار في طرابلس وبنو منقذ في شيزر وبنو كنانة في مصر. فدمر الفرنج قوة العرب المسلمين، ولم يعد لهم وجود ولا ذكر، غير أن وجودهم وتأثيرهم بقي قوياً في التوجيه الديني وفي ممارسة القيادة على مستوى جماهير المسلمين. ولم يكن من المهم بالنسبة للعرب المسلمين ممارسة القيادة العليا، ولكن كان من المهم بالنسبة لهم هو انتصار الإسلام وأهله، وقد تحقق لهم ما أرادوه.

لقد كانت حرباً واحدة ذات هدف واحد رغم امتداد جبهتها الواسعة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. ولقد حاول بعض امراء المسلمين ـ مثل صلاح الدين الأيوبي ـ الحصول على دعم من ملوك المغرب والاندلس، معتبراً أن الجبهة الرئيسة

هي جبهة بلاد الشام، غير أن اتساع الحرب وضراوتها لم تترك مجالاً لأي قطر إسلامي، أن يدعم قطراً آخر، وجاء الإسلام لنصرة الجميع، فمن قلب المغول التتار، ظهر الإسلام وانتصر، ومن قلب الفرنج ظهر الإسلام وانتصر، إذ كانت شعوب الترك والتتار قد انسابت عبر سهوب اوروبا الشرقية لتشل حركة الفرنج. وظهرت العلاقة الثابتة بين انتصار الإسلام بأهله، وبين انتصار المسلمين بالإسلام. وحافظت هذه العلاقة على صحتها وعلى قيمتها، منذ ظهور الإسلام وحتى الأزمنة الحديثة.

واليوم، وكما كان عليه الإسلام والمسلمون في أمسهم القريب والبعيد، يجابهون حرباً ضارية على كافة جبهاتهم الداخليـة والخارجيـة، ويتطلـع المسلمـون الى العـرب المسلمين الذين أصبحوا شتاتاً لا عرباً ولا مسلمين، وقد فقدوا الأرض التي يستندون إليها. وهل يمكن لنصر أن يتحقق بدون قاعدة؟ وأين هي هذه القاعدة؟ لطالما تعب الباحثون في بحثهم عن هذه الأرض في حضارة الغرب وفي عقائد الشرق فما وجدوها لا هنا ولا هناك، وكل يتمسك بما اعتقده أنه الأرض أو القاعدة التي يمكن الاستناد إليها، وبذلك ضاعت عن الأبصار أن هذه الأرض التي يزعمون أنها هي المناسبة، ماهي إلا جزء من الحرب الشاملة ضد الإسلام وأهله، ولكن لئن ضاعت هذه الرؤية عن البعض، فانها لم تغب عن أبصار معظم المسلمين ـ والعرب المسلمين بخاصة ـ مما أكدته شواهد لا نهاية لها. فهل تعيش الأمة العربية الإسلامية والشعوب الإسلامية مرحلة المخاض العسير في البحث عن صلاح الدين أو الظاهر بيبرس؟ يقيناً لا، وإنما بحثها هو لاعادة الفضائل والقيم التي حفظت للإسلام وأهله وجودهم، فلولا فرض الجهاد في سبيل الله، مـا رفـع كـل مسلم حيثما كان سلاحه بحثاً عن إحد الحسنيين. ولولا البحث عن الطاعة والجماعة ما توحدت قوى المسلمين.

واليوم، وكما كان عليه الإسلام والمسلمون في أمسهم القريب والبعيد، يجابهون حرباً ضارية على كافة جبهاتهم الداخلية والخارجية، وقد تنوعت طرائق هذه الحرب، وتطورت أساليبها، وتعقدت ظواهرها، غير أنها لازالت تحتفظ بجميع أهدافها. ولعل استعراض مسيرة الأحداث في النصف القرن الماضي كافية لاقناع كل ذي عينين ـ إذا ما أراد إمعان النظر في حقيقة الأمور ـ بالحاجة لإعادة تقويم كل ما حدث،

والانطلاق من جديد على قاعدة ما يسمى (بالأصالة الذاتية) والتي استخدمت بديلاً عن فضائل الإسلام ودين الإسلام، خوفاً أو ضعفاً من ذكر الإسلام وأهله. غير أن مسيرة الأحداث وتطوراتها سترغم كل معاند، وكل مكابر، بأنه لا سبيل غير سبيل الإسلام وتلك هي تجربة الحروب الصليبية التي بدأت ولما تصل إلى نهايتها. فقد توقفت الحملات الصليبية، ولا زالت الحرب المستمرة على أشدها. وتقدم هذه التجربة التاريخية الفذة معيناً لا ينضب وذخراً لا ينفذ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

بسام العسلي